وراء الحواس

ياسين أحمد سعيد

وراء الحواس

ياسين أحمد سعيد

فوتوجرافيا الغلاف: أميرة محمود

تنسيق الغلاف: محمد مجدي يوسف

المراجعة اللغوية والتنسيق الداخلي: إسلام علي

مدير النشر: هند عبد الله (نور مانجا)

إشراف عام: رباب فؤاد

رقم الإيداع: 2016/19931

الترقيم الدولي: 9-20-6534-977-978



Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing



وراء الحواس

(شِبه رواية)

ياسين أحمد سعيد



مقــدمة

"البصر، السمع، اللمس، التذوق، الشم"

معلوم أن هؤلاء هن الحواس الخمس للإنسان، ونضيف: أن كل حاسة منهن، تعد مفتاحًا لأفق آخر خارج مجال إدراكنا.

أهل قرية (السبائك) اختبروا الحقيقة السابقة كأقصى ما يكون، فيؤكدون -همسًا- أنه هذا الأفق الخفي حافل بـ : بومة تحلق بجناح واحد.. جان يحرس المقابر.. سلعوة.. عيون بشرية مُنتزعة.. زوبعة.. كهنة صامتون.. إلخ!

بعض ما سنرويه -تاليًا- مستوحى من التراث الشعبي، والبعض الآخر له نصيب من الحقيقة ووقع بالفعل؛ أو -على أقصى تقدير- يُتوقع حدوثه في أي لحظة.

هذا، ولزم التنويه.



الحاسة ٥:

اللمس

وراء الحاسة:

لمسة محرمة

"محسن أبو ريّان مااااااات!"

"محسن أبو ريّان ذبحوووه يا ناس!"

ضجة.. زحام.. صرخات نساء تنبت من قلب الليل، أما الرجال فأحاط كبارهم بالجثة، يكبحون أمواج الزحام حولهم، والقشعريرة داخلهم، في حين حنجرة محسن صاحبة الصوت المداعب العالي، ها هي أمامهم، مشقوقة عرضيًا تنز دماءها.

إلى الأسفل قليلًا، اكتسى صدر جلبابه الأبيض باللون الأحمر، بينما يمناه على صدره تقبض على سكيـ... يمناه تمسك السكين الدامي؟ خمّن الجمع المعنى الضمني لذلك!

هكذا تصير عبارة (ذبحوه) محل شك؟!

اندلعت شرارة الصيحات المشحونة:

ـ أيمكن أن يكون هو من...؟ (ذهول)

ـ محال! من اللامعقول أن يذبح أحدهم نفسه، من البشري الذي يمكنه الإقدام على ذلك؟ (مصعوقًا)

ـ ثم إن المرحوم كان مثالًا للعقل وخفة الظل! (حسرة)
ـ لعلك نسيت العصبية التي انتابته مؤخرًا، وكثيرًا ما كان يكلم نفسه. (غمغمة)
ـ ها هو السكين أمام أعيننا، ويده محكمة حوله، و... (يمد يده)
ـ لا تلمس شيئًا أيها الغر! اترك السكين مكانه، وليتصل أحدنا بالنقطة -يعني مركز الشرطة-. (غضب)
ـ أولًا: يجب أن نغطي الجثة إكرامًا لحرمتها. (خفوت)
ـ ليفعل أحدكم شيئًا. (تخبط)
ـ فليفعل أحدكم شيئًا. (المزيد والمزيد من التخبط)
جاء الدور على (ركابي) ليقوم بـ(النقد الذاتي). صرخ مدفوعًا بغيظه من تكرار العبارة الأخيرة، علّق بأن هذا -بالضبط- عيبنا؛ ألف عمدة يتكلم، ويطلب من الآخرين أن يتحركوا، بينما هو خيال مآتة في مكانه!
وجم الجمع إثر الصرخة الصافعة، في نفس اللحظة التي قرر فيها ركابي البدء بنفسه. دفع يده محتدًا داخل جيب (السيالة)، فعاند الهاتف داخلها أصابع ركابي المرتعشة، وإن التمس الرجل العذر لأنامله؛ فعلى بعد خطوة يطل الموت من أشنع شرفاته؛ جثة نُحِر عنقها، تنام على فراشها من التراب المختلط بالسائل القاني، بالإضافة إلى يد الجثة المتصلبة على سكينها، والتي تلقي باحتمال وارد أن يكون انتحارًا.
أبشع وسيلة انتحار قد تخطر ببال!
كيف احتمل الفقيد ملمس النصل البارد، ثم قـ...!؟
جنّب ركابي بصره المنظر، فبوغت بعينيه في عينيَ الشيخ صالح المنتحي جانبًا، يقاطعه بإشارة من يده الممسكة بالمحمول، ما معناه (لقد اتصلت).

شق مولانا صالح طريقه بين الأكتاف المتلاصقة حتى بلغ محاذاة ركابي، على رأس الجثة. في نفس الوقت انتقلت عدوى الحركة للبقية، وها هي ذي ملاءة تبرز من العدم.. ليست الملاءة وحدها! أيضًا نهلة.. شقيقة محسن.

توقع الكل عدم جرأتها على الاقتراب أكثر، غير أن المرأة خالفت توقعات الجميع، وارتمت على صدره، لثمت شفتيه بجنون فاقشعرت أجساد الواقفين قرفًا أكثر منه استغراباً؛ ليس من المعتاد أن تُقبَل امرأة أخاها بهذه الطريقة، فما بالك لو كان الشقيق مقطوع العنق!

ـ أخي، عمري، لِمَ تركتني وحدي!؟ من لي بعدك في الدنيا!؟

تصلبت عيناها على السكين في يده، مما صعّد بانهيارها إلى مداه:

ـ لم فعلت ذلك بنفسك!؟ صدقني لم أقصد صدقني، لم أقصد.

جاء الدور على معتصم زوج نهلة لينقذ الموقف، ويحملها بعيدًا.

ركلتْه، عضتْه، شتمتْه، بينما قابل معتصم كل ذلك بتماسك هش.

صدمته لا تقل عن صدمتها؛ فقبل أن يكون محسن صهره، فهو رفيق طفولته وابن عمومته. يتشابهان في كل شيء، الوجه الأسمر البيضاوي، القامة، نبرة الصوت، حتى كثيراً ما يظنونهما أشقاء.

انصرف معتصم وزوجه، فتعاون الرجال على تغطية الجسد النحيل المستلقي على ظهره، العنق نصف المقطوعة، الملامح الغاضبة أكثر منها متألمة.

تذكر ركابي -فجأة- شقًا منسياً من الكارثة، فهتف مقاطعًا:

ـ أواه يا ربي! نسينا أمر الدماء! نحتاج عدسًا أصفر بسرعة.

أشعلت كلمته توتر الحشد، فتحرك ألف شخص لجلب العدس الأصفر؛ هذه النقطة -بالذات- لا تهاون فيها، ولا تواكل.

حيث تمتلك القرية دستورها الخاص من المعتقدات الشعبية، ومن بنود هذا الدستور:

مادة ١ :
ـ دماء القتلى لابد وأن تغطى بالعدس الأصفر، وإلا سيعود في صورة صُل.
(الصَّل هو مرادف الشبح في لغتهم الدارجة).
مادة ٢:
ـ لابد أن يجري ذلك بشكل عاجل؛ فلو سبقتهم الدماء بأن جفت أو تشربها الثرى، لن يكون للحبيبات الصفراء -حينئذٍ- قيمة.
سيخرج الصَّل من الدماء المتخثرة، يحيل ليلهم إلى معزوفة رعب. المؤسف، أن نطاق التنقل للصَّل محدود في شارعه، فتتولد مأساة أنه لا يبلغ قاتله أبدًا، فيكتفي بطرق الأبواب القريبة مفزعًا ساكنيها، أو عله يستند بظهره على عمود الإنارة، بينما يعدّل من وضع عنقه المذبوحة بكفه، ومن وقت للآخر، يقطع الطريق على المارة طالما لم ينتصفوا ممن قطع عنقه.
هناك نسبة من أهل القرية سخروا -صغارًا- من هذه المعتقدات، ولعل ركابي في مقدمتهم. الآن كبروا.. تشربوا وتغلغل فيهم تراثهم بتناقضاته، غرابته، مخاوفه، فكان من الطبيعي أن يتغير موقف ركابي الآن، ويخلع عمامته إحباطًا:
ـ لا فائدة، جزء من الدماء قد جف فعلًا.
شدهت العيون وهي تنظر إلى حيث أشار؛ إذ تشربت الأرض خمس حجم الدماء، وتحول السائل الأحمر الكثيف إلى قشرة جافة متشققة، تنذر بأيام مظلمة قادمة.
وسط زحام الرجال في المكان، وزحام الخواطر السوداء في عقولهم، انشقت الأرض عن (منذر) ابن ركابي، وفي يده كيس مليء بالحبيبات الصفراء، أشاح منذر بوجهه عن الجثة إلى أقصى مدي؛ فالمفترض أن هذا القتيل -كما نعلم- هو رفيقه، الذي اقتسم ذكريات الطفولة والشباب، وكانوا يرقصون في زفافه منذ مدة ليست بالقصية.

أسرع صالح يجذب الكيس، وشرع يقوم باللازم:

ـ علنا -يا ركابي- ندرك ما يمكن تداركه.

قالها واقشعرّ من ملمس الحبيبات؛ كانت ناعمة في انسيابها من بين أصابعه كالماء.

انتهى صالح، فتلاقت النظرات القلقة المتبادلة على تساؤل واحد:

ـ هل هذا كاف؟ أسيمنع (الصِّل)؟

****

التفوا -مرارًا- حول العريس لتحيته على طريقتهم الصعيدية، فتشابكت أذرعهم فيما يشبه زهرة لوتس منحنية على محسن في المنتصف، ترافقها الصيحة المشتركة التي يتباركون بها:

"زمان الورد كان شوك
من عرق النبي فتّح
سعيد يا نبي.. سعيد
ومن صلى عليه يسعد
مبروك مبروك مبروك"

عدد كبير من رفاق الكفاح في الثانوية، فرّقتهم الأيام، ثم عادت ولضمت عقدهم في ليلة زفاف محسن وصباح.

ـ عمرو، منذر، كيف حالكم؟ ومن؟! ثابت أيضًا؟!

هكذا بادر أحمد ثلاثي الرفاق القدامى، بينما عمرو يتعجب من أن (كلنا في مكان واحد، أخيراً!).

برر أحمد بأن اللوم على مكتب التنسيق اللعين، فرّق كل منا في اتجاه، (يا مولانا، وابن مولانا).

اقشعر عمرو فور سماعه اللفظة الأخيرة، واستغفر بصوت عالٍ:

ـ يا معتوه! قلت لك ألف مرة: اسمي هو (عمرو) فقط.
خبت ابتسامة أحمد عندما لمس كم تضايق عمرو بحق، فربت على كتفه:
ـ تعرف أنني أمازحك.. ألا تزال جادًا كما أنت يا عمرو؟!
جاهد عمرو كي يتجاوز ضيقه، ويرد بأنه لم تتح له فرصة للهزل، فرفض.

إيوو شمندورة منجنا
بهر جاسكو مينجنا

فور بدء الأغنية من مكبرات الصوت، هرع مع الرفاق لمشاركة محسن الرقص.
تخلف عنهم أحمد، فعاد عمرو ليجذبه من كمه، قائلًا:
ـ ها قد جاءت الفرصة، وأجدك أنت من يتقاعس.
ـ اعفني يا عمرو؛ فأنا متوتر هذه الأيام بما يكفي.

سجري مالا واينا
مورتنا نا واينا
ع الشط استني رايحة فين
دا أنا ليكي بغني غنوتين

بعد إلحاح واستفسار من عمرو، شرح أحمد أن قدميه قادتاه بالمصادفة إلى مصدر أغلب القصص الخرافية في البلدة، إلى اللسان (مستطيل من مياه النيل، تحيط به اليابسة من ثلاث جهات)؛ حيث أن الزوابع الأخيرة كذلك تأتي منه)، هناك شاهد أشياءَ عجيبة؛ كان الماء يغلي وكأنما تصطرع تحته مياه الشياطين و...
ـ فقط؟!

غنوة عن الآهة والحنين
وغنوة لعنيكي يا حنين

ـ ماذا تعني بـ "فقط" يا عمرو؟ وهل ما أقوله لك هين!؟ أخبرك بأن موجها ارتفع ما يقرب من ثُلث متر، فربضت مختبئًا أرقبها بخوف، وما إن هيئ إلي أن أجسامًا تخرج منها....

آه يا شمندورة لابسة توب
يا أجمل من الصورة دوب يا دوب

أنهى أحمد جملته بفرقعة أصبع، فأكمل عمرو عوضًا عنه:
ـ وضعت طرف الجلباب بين أسنانك، وهربت بالطبع. كلا.. إن الأمر يحتاج إلى قعدة عرب عندي ذات مساء، المهم الآن أن تطاوعني.
تردد ثابت بينما الموسيقى النوبية تتضامن مع نبض قلوبهم، وتغذيه بالمرح.

إيوو شمندورة منجنا
بهر جاسكو مينجنا

ـ هناك سبب آخر أهم يمنعني، وهو أنني لا أجيد الرقص. ثم تعال هنا، حماسك يوحي لي وكأنك تفهم ماذا تعني (إإيوو شمندورة منجنا)؟!

أجابه صديقه بأن هذا أمتع ما في قبائل بلدنا الثلاثة(•)؛ عدم الفهم لم يعنِ إطلاقًا عدم الامتزاج والمشاركة، لـ..
رفع أحمد كفيه علامة الاستسلام، ووافقه على طلبه دون الحاجة لمحاضرات.
أحاط الجميع بمحسن، هو رقص فرحًا بأنه سيُهدي حريته إلى أنثى أحبها، وهم يرقصون بحرية فرحًا بفرحه.

****

فرشن فناء المنزل بالحصير، وجلسن للمواساة في الرجل المذبوح.

• يقصد قبائل أسوان الثلاث الرئيسية: (النوبيون)، (الجعافرة)، (العبابدة)، مع عدم إغفال وجود البعض من قبائل البشارية التي يتمركز أغلبها في البحر الأحمر.

اللون الأسود هو سيد الموقف، كما هو معتاد في زي النسوة أثناء العزاء.. فحُشرت الأجساد داخل المساحة الضيقة، حتى بدا وكأنهن جسمًا واحدًا متعدد الوجوه.. تتوسطهن نهلة.

الفراشة الحزينة التي اختبأت في شرنقة الصمت، بينما التمس الكل لها ألف عذر؛ لا يخفى على أحد أن (روحها معلقة بأخيها)، حيث توفي أبوهما في وقت مبكر، فكان لها الأب والأخ.. حتى أول ابن لها أصرت على تسميته باسمه.

سعى البعض أن يحملوا عن نهلة رضيعها، رفضت، أصرت أن تزرعه في صدرها، دون أن تدعه أبدًا، والعجيب أن محسن الصغير استكان تمامًا في مواجهة الجو الغائم.

لا تزال النساء يقدمن العزاء، بينما نهلة شاردة في عالم آخر.

"التحقيقات أثبتت أنه انتحار"

"الحادثة ظهرت في التلفاز"

"فمن النادر في هذه الدنيا أن يذبح أحدهم نفسه"

"لا يمكن لإنسان طبيعي أن يقدم على ذلك"

اعتصر الألم قلب نهلة تجاه الخاطر الأخير، فهي من جعلته غير طبيعي.

احتضنت نهلة محسن الصغير أكثر؛ فمشاعرها تجاه الراحل أكبر بكثير مما تحمله الشقيقة لشقيقها، إنه بالنسبة لها مثل...... تعجز عن الوصف!

الموضوع تجاوز لديها أسوار التعلق المرضي، فخرقت كل ما يمكن تصوره من حدود.

حَلِم محسن ذات مرة، بحسناء تدنو منه وسط الغمام، تقترب منه يحفها السحر.

تراجع محسن بتوجس، فوجدها تواصل الاقتراب فوق أجنحة خفية، تسير فوق بساط من لغة النظرات، حتى صارت بين ذراعيه، هنا صمتت لغة

النظرات لتبدأ لغة الحاسة الأكثر حميمية: اللمس، حيث بهت محسن لجرأتها وهي تتجول -بحنين غريب- في طرقات جسده، و...

جفل محسن بذعر، واستيقظ.

وجد نفسه في غرفته الصغيرة، وأن هناك جسدًا حقيقيًا يحجب عنه الضوء القادم من الشارع.

استغرق محسن دقائق حتى فهم؛ من؟ ماذا؟

ثم انتقل إلى المرحلة التالية بأن هب، وغضب، وثار، وصفع. من يومها ومحسن ينفر من نهلة، كلما رآها كان يشيح بوجهه ويستغفر بصوت عال.

تزوجت نهلة، فتصورت -من ناحيتها- أنها ستشفى، وأن الحبل السري المجنون بينها وبين أخيها سيضعف؛ لكن بمرور الوقت، لاحظت العكس، تعلقها به يزيد، حتى زوجها الذي اقترنت به، اكتشفت أنها اختارته -لا لشيء إلا- لأنه يشبه شقيقها.

خرجت نهلة من رحى ذكرياتها على مرأى (صباح)، أرملة محسن التي أقبلت تستند على ذراع بعضهن. هذا هو ظهورها الأول في العزاء، بعد أن أفاقت بالكاد من الصدمة.

عجزت نهلة عن تحمل رؤيتها، فهبت واقفة:

ـ ما الذي جاء بك؟

اتخذ الذهول مكانه بجوار الحزن على وجه صباح، الفتاة الصغيرة الحالمة، التي فُجعت باكرًا جدًا في زوجها؛ فما جنايتها في أن تذهب لتعزية ذكراه!؟ عجزت عن استيعاب سبب تعامل نهلة معها وكأنها غريمتها، لا أرملة شقيقها!

نهضت أم محسن بأسرع ما سمحت به شيخوختها، فسندتها النسوة حولها، ليجدوها تزجر ابنتها بقولها:

ـ ماذا بك يا بنية!؟ قلبي يوجعني على أخاك، فلِمَ توجعينه أكثر مما تفعلينه!؟
انفجرت نهلة أكثر، واعتصرت ابنها في حضنها لدرجة بدئه في البكاء:
ـ كيف تجرئين على القدوم وأنت يا بنت الـ... -التفت إلى والدتها- إنها السبب يا أمي.
وسقطت نهلة على ركبتيها لتكمل في نهنهة عالية:
ـ وأنا السبب قبلها!
اشتعلت ملامح أم صباح إثر إهانة ابنتها، فهرعت والدة نهلة تلتمس الطريق نحوها وتعتذر، تحدثت بكلام مختلط مكلوم عن ابنتها، والصدمة، و... و...
في المقابل، انطلقت نهلة كالسهم نحو غرفتها، فأغلقت خلفها بابها.
في الداخل، انهارت قدرة ركبتيها على التماسك، فانثنتا تحتها؛ ومحاذاتها تحت السرير كومة كتب غريبة، بالإضافة إلى طست به رفات أعشاب محترقة.

****

تدافع الجميع يرتصوا لأجل الرقصة النوبية على صوت منير. تتضمن الرقصة صفوفًا متتالية، يتحرك الرفاق فيها على إيقاع واحد.
الشيء الوحيد الذي لا تتضمنه، أن يتجمد محسن في مكانه، فيحسر رأسه ناظرًا إلى الأسفل، ثم يرتعش لثوان كالمحموم.
قلقوا بشدة من غرابة أطواره، والمحير أكثر، أن هذه الحالة تستغرق ثوانٍ فحسب، ولا يلبث أن يعود لطبيعته، كأن شيئًا لم يكن!
تقدم ابن عمه معتصم، فأحاط كتفي العريس بذراعيه، يستوقفه:
ـ أأنت بخير؟

أجاب محسن بهدوء وغرابة شديدين، بينما يدعك جبهته بكفيه، ثم يهبط بهما إلى وجنتيه:

ـ نعم، وما الذي يمكن ألا يجعلني بخير!؟

استشعر عمرو وجود روح غير مفهومة تجثم في المكان، وازداد يقينه مما حدث فيما بعد، عندما انهمك محسن في مصافحة بعض المدعوين، بينما عروسه على المسرح.

صاح به ثابت:

ـ يكفي! فلتذهب لترقص مع عروسك.

ـ لماذا!؟

استغرب الجمع من الاستفهام المباغت، فهتفوا به:

ـ هيه، لا تكن خجولًا.

ـ وكيف أخجل من فتاة أكرهها كما أكره نفسي بالضبط!؟

ضحك الشباب من حوله؛ لعله يقصد العكس، وقلب العبارة على سبيل الدعابة، والأدهى أنه تكلم بجدية وحنق كادا يقنعانهم فعلًا، بينما في الثانية التالية مباشرة، عادت ملامح محسن إلى الإشراق، وصعد إلى حيث شريكة عمره القادم.

كانت تتمايل كزهرة عباد شمس، في رقصة مع بعض صغيرات العائلة على المسرح، ثم دارت عجلة المنغصات تعكر الفرحة الكبرى؛ إذ قدَّمت نهلة كوبًا من العصير إلى العروس، إلا أنه انسكب فجأة على الثوب الأبيض لصباح.

مر الموقف بأن اعتذرت نهلة، وهي تستعين بابتسامة خاوية، فصحبت النسوة صباح لتغيّر فستانها. مجملًا، انتهى مشروع رقصة المشتركة للعروسين، بالسكتة القلبية.

طائر الفرحة يرفرف على ليلتنا ما بين ابتعاد واقتراب، ولا نعلم أين يحط في النهاية.

****

اقترب أربعين محسن، فاستجاب معتصم لطلب زوجته أن تبيت عند أمها، وبررت بالإعداد لذكرى الراحل، ومساعدة والدتها بعمل (المنين) -خبز يوزعونه في أربعين الموتى- ومن به ثم الخروج إلى المقابر.

جاءت الصبية هاجر تلهث إلى نهلة.

ـ يا خالة نهلة، يا خالة نهلة.

ـ ماذا هناك يا فتاة؟ خيراً؟!!

تحدثت الصبية بفيض لاهث من كلماتها، وإشارات يدها:

ـ أمي رأت بومة على عمود الإنارة، فتقول لك انتبهي على الصغير.

* دستور التراث الشعبي:

مادة ٣:

في كل مكان على أنحاء المعمورة، يحمل ظهور البومة رمزية خالدة للشؤم. أما في قرى أسوان، تقوم بأدوار أخرى أفزع؛ إذ يشيع أنها تتغذى على دماء الرضع، تحوم حول أي بيت فيه وليد جديد، ثم تتحين الفرصة لتدفع منقارها في أنفه، وتستنزف دماءه حتى آخر قُطيرة.

أسرعت نهلة إلى صغيرها، يلهو على الأرض برفقة لعبة قديمة.

ضمته إلى صدرها بقوة زائدة، ففزع الرضيع ليبدأ في البكاء.

ـ نام يا حبيبي نام، وأذبح لك جوزين حمام.

التهم التوتر روح نهلة، وفقدت أعصابها جراءه، فهتفت في هاجر التي تعلم يقيناً أنها تتفرج في الخارج:

ـ هاجر، ألم تنصرف البومة؟

جاءها الرد مدثراً بسحابة من الهدوء:

ـ نعم، انصرفت.

أعقبت هاجر كلامها بنفس السكينة:

ـ كم هو منظر فاتن يا خالة! ليتك رأيتِه!

ـ أي منظر هذا؟!

ـ منظرها. لم أتخيل يومًا أن أرى بومة تطير بجناح واحد!

****

بومة تحلق بجناح واحد

تجاهلت نهلة كلام هاجر؛ فمن ذا الذي يلتفت إلى خيالات الأطفال، خصوصا فيما يصل لدرجة (بومة تحلق بجناح واحد).

يا لها من خرافة خصبة وجديدة تمامًا!

في اليوم التالي قبيل الشروق، رأت نهلة البومة وجهًا لوجه أول مرة، تقف على أعلى نقطة في شجرة الصفصافة.

ابنها على مرمى ذراع منها، فأسرعت إليه تضمه بين جوانحها.

ـ لن تستطيعي أن تمسي ظفره يا بنت الـ (..).

دفنت محسن الصغير في صدرها أكثر، في حين دققت النظر إلى الأعلى، ألحت عبارة هاجر في النقر داخل رأسها:

ـ "لم أتخيل يومًا، أن أرى طائرًا يطير بجناحٍ واحد"

تقدمت خطوتين فقط، عجزت عن المجازفة أكثر لأن الطفل بين ذراعيها، ثم صوبت بصرها مستعينة بأضواء الشمس الوليدة، فوجدت أن البومة لم تمنحها فرصة، وحلقت إلى الأعلى.

أجفلت نهلة وتراجعت إلى الخلف بتشكك؛ البومة طارت بميل حاد لجسدها نحو اليسار، ميل لا يمكن أن يكون طبيعيًا بالمرة.

ـ ماذا بك يا نهلة؟!

خرج الصوت الواهن لوالدتها حاملًا تساؤلها الحائر.

ـ لا شيء يا أماه، لا شيء.

غلّبت نهلة احتمال أن البومة بها مرض أو إصابة، فاعتقدت الصغيرة هاجر أنها بجناح واحد.

****

اليوم هو أربعين محسن.
انهمكت نهلة في إخراج أقراص خبز (المنين) من الفرن، سيأتي جيرانها وذويها بعد قليل، ويخرجون بها معًا إلى المقابر.
جلبت جلبابًا قديمًا، وغطت السلة كي لا تتركها عارية لنقرات الطيور، وفجأة وجدت رياحًا غريبة تسبح في فراغ الفناء، أتراها مقدمة للزوبعة التي تثرثر عنها القرية؟!
تجمدت نهلة من الذعر، حيث مُثِّل أمامها أبشع كوابيسها: البومة!
هذا حقيقي إذن، تأكدت نهلة أنها ظلمت هاجر؛ فضيفتهم بجناح واحد بالفعل.
المشكلة الأولى: أنه يقف بينها وبين طفلها، بمعنى أن أي محاولة منها ستكون متأخرة.
الثانية: هناك احتمال مُلِح أن يكون ما أمامها ليس بومة فقط، لا يوجد كائن يطير بجناح واحد، إلا إذا كان عفريتًا متمثلًا في هذه الهيئة، في هذه الحالة، ستصير المهمة أصعب، ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بابنك تنسى كل ما عدا ذلك.
جرت في اتجاه البومة تضرب بذراعيها الهواء، وبالجلباب القديم في يدها، فخرج هتاف ثلجي من البومة:
ـ انظري إلى جلبابي القديم في يدك، كم هو متسخ؟ أرأيتِ كم أنتِ شقيقة مهملة، تتكاسل عن غسل ثياب أخيها؟
تجسدت البومة في لحظة إلى جسم رجل، لا حاجة بنا إلى تخمين اسمه.
توسلت نهلة باكية:
ـ سامحني يا محسن. لم أرِد لما حدث أن يحدث، ما سحرت لك إلا كي تحبني كما أحبك، كنت أريدك بالكامل لي.
أكمل محسن الحديث عوضًا عنها:

ـ فوجدتِ من غير الممكن أن يحب أحدٌ بالسحر، لكن يمكن أن يبغض!
ـ أنت من أثار جنوني، ولم يفلح نَفْثي في العُقَد في جعلني أنالك، كما أثرت أنت جنوني أكثر عندما خطبت تلك الـ... صباح.
ما حدث أن أول ما كرهه محسن -وهو ما لم تتوقعه الأخت- كره ذاته، وليس صباح؛ لأنها أحب إليه من نفسه، حتى انزلق به الصراع الداخلي الحاد إلى.. الانتحار.
استعاد محسن جزئيًا تحوله للبومة، في حين تصاعد دوران هالة الغبار من حوله، نظرت نهلة إلى طفلها بهلع.
ـ أرجوك دع طفلي! أقلها أنه يحمل اسمك، يذكّرني بعشقي لك.
ـ ألم تفهمي بعد يا شقيقتي!؟ لم آت لأجله، بل لأجلك أنت.
تجمدت نهلة في مكانها كالمسحورة، لم تصرخ أو تستنجد؛ بشكل ما ارتضت ما سيحدث لها أيًا كان.
جاءت نسوة الأربعين بعد ربع ساعة، فوجدن بكاء طفل رضيع، وجثة امرأة تنزف الدماء من أنفها، بالإضافة إلى صمت الرحيل، الذي خلَّفته بومة.. تطير بجناح واحد.

****

أيوو شمندورة(•) منجنا.. (يا شمندورة يا وافقة).

بهر جاسكو مينجنا.. (في وسط البحر).

سجري مالا واينا.. (والقوارب الشراعية ترفرف).

مورتنانا واينا.. (وترفرف أكثر عندما تكون جوارك).

• أغنية "شمندورة" مترجمة، ونكمل التوضيح بأن الشمندورة: هي علامة توضع وسط البحر، لإرشاد السفن حد.

الحاسة ٤:

الشم

وراء الحاسة:

رائحة بخور المقابر

في الأحوال العادية، يقترن البخور بذكرى والدته عندما ترقيه من الحسد.
أو بأجواء صلاة الجمعة، عندما يمارس عم يحيى -عامل المسجد- طقسه الدائم هناك، فينشر أعواد المسك، ويضعها في أركان الجامع وحول سلم المنبر.
أما اليوم، تسللت الرائحة إلى مستقبلات الحس لدى أنف (خاطر)، لتُخلِّف في أوصاله رجفة باردة؛ فهو بخور بلا والدته، أو والده، أو بيت، أو مسجد، أو أمان.
استرسلت الرجفة لتصل إلى المصباح في يده، وتأمل خاطر على ضوئه وجه الشيخ عمران برهبة؛ فقد قبض السابق على الكتاب المصفر بين يديه، وطفق يغمغم بكلمات غريبة منه، بينما يقفا بين ذراعي الوادي الجبلي المقفر، والذي يَعِدهما -حسب تأكيدات عمران- بخبيئة ثمينة، أو -كما يقول المتعلمون أرباب المدارس- مقبرة أثرية.
بدأ خاطر يتصبب عرقًا، أكثر من مرة ود أن يسأل مرافقه "ألم تدنُ نهاية كل هذا؟"، لكن الجو المقبض حوله أخرسه.

أفاق خاطر على رجفة كهربت جسده، لم يدرِ أهي الأرض تهتز تحته؟ أم أنها خفقات قلبه تتصاعد إلى أذنيه؟
حسم الأمر صوت عمران المستحث:
ـ هيا يا خاطر... احفر.. احفر.
هنا فقط انتبه خاطر إلى أن الأرض ترتجف تحت قدميه بالفعل، فوضع مصباحه جانبًا، وأنشب يديه في الثرى المخلخل، تطارده سياط رائحة البخور، لتدفعه إلى العمل أسرع.. أخيرًا تكشفت الأرض عن غطاء ثقيل، تعاون الرجلان معًا لإزاحته.
التقط خاطر المصباح ثانيةً، ليوجهه صوب الفتحة، وإثر البصيص الخافت شاهد صورة شبحية لدرجات هابطة.
أما عمران، فقد ضم الكتاب تحت إبط يسراه، ثم تجمد على هذه الوضع، ليلقي تحيته الخاصة على السلم السفلي:
ـ "لا تخرج إلا بإذني. أقسمت عليكم، وعزمت عليكم، أيتها الأرواح الروحانية، أن تحضروا لمقامي هذا، وتسمعوا دعوتي، وتشموا دخاني، وتقضوا حاجتي، وهو أن تلقوا بعارض هذا الأدمي. كلميني بما فيه إصلاح مريدي".
ثم انسحب من الإكمال بالعربية، وعاد إلى لغته العفاريتية الأولى، يستطرد بها آخر تعاويذه.
راقبه خاطر بأنفاس متلاحقة، تتشارك نفس الإيقاع السريع مع دقات قلبه، كما أن هناك رائحة البخور مرة أخرى، إنها تجثم على صدره أكثر، وأضافت إلى نوتة السيمفونية المزيد من النغم المقبض.
"إن وجهك فأل خير يا خاطر؛ يبدو أن هناك رزقًا وفيرًا ينتظرنا بالأسفل"
ظل خاطر محتفظًا بانطباع الضياع على وجهه.
ـ خاطر، أين ذهبت يا خاطر!؟؟ إنني أحدثك!
ـ تحدثني أنا؟! ظننتك تكمل خطابك لهم، اللهم احفظنا.

قهقه الشيخ عمران، وهو يقول بصوت بذر فيه كامل ثقته:
ـ كلا، لا يوجد فيهم أحد اسمه خاطر. والآن هيا، التقط المبخرة في يدك، سننزل.
صوّب خاطر نظرة تجاه السلالم الهابطة، فوجدها كوحش يفغر فاه، مما جعله يتعثر في حروفه المتشككة:
ـ وماذا عن الرَصَد؟
ثبّت عمران الكتاب تحت إبطه الأيسر، علامة الطمأنة:
ـ الطريق ممهد، لا تقلق.

****

لدى القرية دستور غير مكتوب من المعتقد الشعبي، سبق أن نوّهنا عن أحد مواده في مسألة (الصُل) و(البومة):
مادة ٤:
ـ الاعتقاد أن الفراعنة سخَّروا الجان لحماية مقابرهم، فيُطلق على الجني الحارس اسم (الرَصَد)، ومعه يصبح اقتحام المقابر مخاطرة حقيقية؛ فلابد من الاستعانة بـ ند لهم، من أمثال الشيخ عمران.
شرح عمران لرفيقه:
ـ لقد أطلقتُ التعويذات يرافقها بخوري، وهو كاف ليعمي الرَصَد عنا حتى ننل بغيتنا. إذا حدث وانطفأ البخور فجأة، فهذا نذير خطر، حينها فلتَعْدُ خارجًا دون أن تلتفت خلفك، وكأنك تهرب من جهنم ذاتها.
نقل خاطر بصره إلى المبخرة في يده، احتشد تأثيرها النفسي ليجثم على صدره، فأطلق سعلتين مختنقتين.
ضم الشيخ كتابه إلى صدره، وهو يشرد في الوحش الفاغر فاه:
ـ دعنا لا نضع الوقت.

بخطوات متمهلة تقدم عمران بالمصباح يتبعه رفيقه، فنزلا السلم الحجري، ولم يمض الكثير قبل أن تمس أقدامهما الأرض المنبسطة.

ألقى المصباح ضوءه على النقوش الزاخرة، وبنفس الخطوات البطيئة الحذرة قطعا الممر الأفقي، حتى أفضى بهم المطاف في النهاية إلى باب، باب مصمت ثقيل أقرب إلى الجدار.

استغرق الأمر الكثير من المحاولات، وأخيرًا نجح عمران مرة أخرى.

صدر صوت الصرير المخيف، ثم مد عمران مصباحه عبر فرجة الباب الضيقة، فترامى ضياؤه على جدران الباحة، أتبعه أوتار حنجرة عمران التي همست بصوت مبحوح:

ـ هذه المقبرة يفوح منها ما هو أثمن من معدن الشمس.

فهم خاطر بالبديهة أنه يعني معدن الذهب، فقد ارتبط منذ القدم بهذا الوصف، في حين تشتهر الفضة بأنها معدن القمر. يبقى السؤال: ما هو الأغلى من الذهب؟؟!

سعى خاطر لأن يقتل حيرته ويسترق نظرة، فوجد الغرفة تضن عنه بالإجابة؛ إذ كانت خاوية إلا من تابوت، وبعض الأوعية والأثاث، و..... وتمثال أبنوسي أسود يقبض على رمح من نفس اللون، بجوار التابوت وكأنما يحرسه.

خُيِّل إلى خاطر أنه اعتصر رمحه أكثر عندما التقط عينيهما، فارتد بصر خاطر ملتاعًا، ونظر إلى الأرض وهو يبسمل ويحوقل، بينما طرقت أذنيه إجابة متأخرة لسؤاله، على لسان عمران:

ـ فلحسن الحظ، الرصد الذي يحرسها مريض.

كان من الطبيعي أن تبدر عن خاطر صيحة الاستغراب، كرر بها: مريض!؟؟

أجاب عمران بصوت عميق، قادم من بئر بلا قرار:

ـ نعم، مريض بالسأم من الدور الذي يضلع به منذ آلاف السنين، وهذا يبشر بإمكانية الوصول لاتفاق معه. خاطر، انتظرني، سأدخل أولًا، و... لآخر مرة

أنبهك ألا تنس، أبقِ المبخرة معك، وتذكر تحذيري السابق: إذا انطفأت أُعدُ بكل قوتك، ولا تلتفت خلفك، أما أنا فأعرف كيف أتدبر أموري معه.
تخلى له عمران عن مصباحه، ثم أخرج كشافًا أصغر من جيبه، قبل أن يرحل إلى غياهب ما وراء الباب.
تجمد خاطر في الظلام أمام الباب، لا يؤنسه سوى بصيص الكشاف القادم من الداخل، والعبق الذي تمنحه له الأبخرة المتراقصة.
في أحوال أخرى، كان ليرتاب في استبقاء عمران له، واختصاصه لنفسه بالدخول؛ فدفتر الحواديت مليء بحكايات عن شيوخ المقابر، أغلب سطورها تصف خداعهم لشركائهم، وتصل أحيانًا إلى للقتل!
إلا عمران؛ ظل السطر الأبيض الوحيد في ذاك الكتاب. آخر مرة مثلًا منح خاطر نصيبه نقدًا مقدمًا، ثم عاد إليه بعد أسبوع برزم نقدية إضافية، وقال أن البضاعة جلبت أكثر مما توقع، فوجب أن يقتسما الزيادة كذلك.
يُعَد عمران معدنًا كريمًا أنقى من أن يتلوث بغبار الـ...
تصلب خاطر في مكانه. هل يسمع همسات خافتة عديدة، تتردد في الداخل، فتتعانق مع تمتمة عمران، وتنتجا سويًا هذا الأزيز المستمر؟؟!
أصغى أكثر، ثم هز رأسه بقوة نافيًا، وقال: لعلني أتوهم، وما أسمعه هو تعاويذ عمران وحدها. نعم، الحل الأكثر أمانًا دائمًا، هو أن ترفض التصديق.
وكمحاولة إضافية للهروب، استدعى خاطر من ذاكرته خاطرًا مضحكًا؛ كلام محسن بن أبي ريان أن الاتجار في الآثار حرام!
أي حُرمة فيها، وهي خبيئة مدفونة بلا صاحب، تنادي من يجدها أن تكون ملكه؟!
قال له أنها حق للدولة، هنا بصق خاطر على الأرض بقرف أن:
ـ أي دولة تلك التي نسيتنا، وتعتبرنا محافظات درجة ثانية؟! الأرض أرضنا يا فتى، وما تحتها هو إرثنا الشرعي من أجدادنا!

خفت أزيز المقبرة لثوان، ثم تصاعد مرة أخرى، بينما خاطر سارح في اللامكان، يزدرد طريقة تفكير هؤلاء الشباب، والأغرب أنهم تعليم عالي، مما جعل تساءل ملح يولد:

ـ أي قناعات مضللة تلك، التي سقوها لهم في الجامعات؟؟! و....

تبخرت خواطر خاطر مع علو الأزيز بغتة، مما قتل أي احتمال أن يكون وهمًا، أتبعه ميلاد حشرجة مكتومة، فسكوت تام.

استمرت التطورات اللاهثة، وزادت القصيدة بيتًا بأن الخطر أسفر عن وجهه القبيح، وذلك بأن المبخرة في يد خاطر انطفأت. نقل خاطر بصره إليها فزعًا، فراعه خبوتها تمامًا.

ـ "حينها فلتعدُ خارجًا دون أن تلتفت خلفك، وكأنك تهرب من جهنم ذاتها"

لم يفكر خاطر مرتين، أو لنقل أنه لم يفكر أصلًا، فانطلق يعدو بلا توقف، وخلال ذلك اكتنف الخوف كل خلية من كيانه، فكان رفيقه عبر الطريق الطويل.

استمر خاطر يسابق نسيم الليل، حتى بلغ القرية، وأنس الأضواء المنبعثة من بيوتها.

هناك لم يستطع النوم؛ ظلت أشياء عدة تؤرقه، أهمها أنه تذكر نصيحة عمران، بينما نسي عمران نفسه! ماذا حدث له؟ وكيف كانت مواجهته مع الرصد السائم؟؟

تذكر خاطر الهاتف فجأة، فنقر على أزرار جواله يطلب رقم عمران، ثم انتظر الرنين الطويل، دون جدوى.

طلبه مرة ثانية، وثالثة، و... فجأة سبقه رقم يتصل به هو هذه المرة، الشاشة المضيئة تحمل اسمًا مقتضبًا: (الباشا).

جف ريق خاطر، هذا ما كان ينقصه. ضغط زر استقبال المكالمة، ثم ألصق الهاتف بأذنه، فوجد الصوت الفخم يسأل مباشرة إلام توصلوا؟؟! ولماذا لا يرد عمران على هاتفه؟؟!
التمس خاطر الحذر وهو يجيب:
ـ أهلا يا باشا، لقد ذهبنا إلى المكان الذي عليه العين، فلم تثمر ليلتنا عن جديد. رجعنا على أن نعاود البحث غدًا. لا تقلق معاليك، سنوافيك بالأخبار أولًا بأول. بالنسبة لعمران، أأأ.. لا أعلم، ربما أبقى هاتفه على الوضع الصامت، أو هناك مشكلة في الشبكة.
ـ حسنًا، أنتظر أخبارًا جيدة، سلام.
يثمِّن مأمور المركز وقته بمقياس من ذهب، فيُحسن صنعًا بأن مكالماته دائمًا مقتضبة قصيرة، وهكذا أغلق الخط مباشرة عند هذا الحد.
ابتلع خاطر ريقه، وهو يضع الهاتف على الطاولة.
"محسن بن أبي ريان رفض أن يقتنع برأيي، أقسمت له أن تجارة الآثار مائدة ينهل منها الجميع: ضباط شرطة، أعضاء مجلس شعب، قضاة.
وأننا نتشبث دائمًا بالعمل تحت غطاء أحدهم؛ فمن ناحية تأمن تعقب الحكومة، ومن ناحية أخرى تضمن ألا يبتلعك الكبار في الصفقة.. ثم تقول لي يا محسن أنها حرام، أو حق للدولة؟!
أمعقول أن كل هؤلاء الكبار على خطأ أخلاقي؟!
وإن كانوا كذلك وهم في أيسر حال، فلماذا -نحن الغلابة- يُرجى منا أن نلتزم الصواب؟؟!"
أنكر محسن كلامي مصعوقًا، فأخبرته بالمزيد:
ـ إن من يفحصون التحف ويثمنونها، هم أساتذة جامعة من الذين يدرّسون لكم، واسأل (عمرو بن الشريف صالح)، إنه في كلية قنا، وسيؤكد لك ما

أقوله. إن سمعتهم معروفة في هذا الصدد، و(على عينك يا تاجر)، في حين لا يجرؤ أحد على رفع إصبع اتهام في وجوههم".

زفر خاطر، لينفث جزءًا من مشاعره المشتعلة، ثم يترقب شروق الشمس بفارغ الصبر.

****

جاء الصباح بعد ولادة متعثرة من الانتظار.

هرول خاطر بخطى حثيثة نحو منزل عمران، فقيل له أنه بات خارج المنزل!

اصطرعت أفكار عدة في عقل خاطر: عمران، الرصد، التمثال الأبنوسي، البخور المُطفأ.

انتصرت من كل ما سبق فكرة واحدة: رفض الرجل للتخلي عن رفيقه؛ ففي ذلك تخلي عن رجولته، وديدنه كصعيدي.

حتى لو كان خصمه أرصاد، أو العفاريت الزرقاء، وأد خاطر خوفه، واتخذ قراره؛ سيعود.. رغم كل شيء سيعود.

في نفس الموعد، تجمد الرجل أمام ذات الباب، يقف بصحبة مخاوفه، ومبخرته.

تعلقت عيناه بخيوطها الدخانية الرفيعة، وملأ صدره برائحتها؛ عساها تطفأ ولو النذر اليسير من روعه. في النهاية تحامل على نفسه وفتح الباب، ليسمع صريره الموجس مجددًا.

خطا خاطر إلى الداخل، وملأ عينيه بتفاصيل الغرفة التي فاتته رؤيتها أمس؛ النقوش الزاهية تملًا الجدران، فتشعرك أن ألوانها لم تجف بعد، لدرجة أن خاطر تلمسها ليتأكد.

أثاث عتيق يحيط بالتابوت، بضعة تماثيل مذهبة، البخور يسرح في الأرجاء بحرية، فيمنح الرؤية لمسة غائمة.

ارتعد خاطر، ارتعد وهو يشعر بتلك اليد التي توضع على كتفه.. فالتفت..
ـ "عمران؟"
هتف بهذه العبارة وهو يرى زميله سليمًا مُعافى، ومع اصطدام الوجه بالوجه، انطفأت المبخرة دفعة واحدة، فتحول خاطر إليها بوجه هربت منه الدماء.
ربتت يد عمران على كتفه تقرضه اطمئنانها: "انسَ الخوف؛ فأنا معك الآن. لقد عقدتُ اتفاقًا معه، وصرت المسيطر الأمين هنا".
ـ قالوا لي في منزلك أنك لم تعد، فهل بت هنا طوال الأمس؟
أومأ عمران برأسه (أو لعل هذا ما خُيِّل إلى محدثه)، ثم دار على عقبيه يجوب أرجاء المقبرة، ففعل خاطر المثل، ومضى يتفحص الكنوز المحيطة به، قبل أن تلوح منه التفاتة إلى التابوت. بالطبع، نهشته رغبة عارمة في أن يلقي نظرة على تلك المومياء المسجاة داخله؛ ود لو يرى كيف يبدو الموت مصبوغًا بسمت فرعوني. ببطء اتجه نحوها، ورفع غطاءها الذي أصدر نفس الصرير، حتى وقعت عيناه على وجه القناع..
ارتجف خاطر، ارتجف كما لم يرتجف من قبل في حياته؛ ولعل الكل توقع تلكم القصص المكررة.
فقد كانت ملامح القناع أشبه بـــ. بـــ. ملامح عمران!!

****

سرقت ومضات خاطفة عقل خاطر، ودارت به في رُحى كلمات الأمس:
"إذا انطفأت اعدُ بكل قوتك، ولا تلتفت خلفك، أما أنا فأعرف كيف أتدبر أموري معه"
"بعد اصطدام الوجه بالوجه، انطفأت المبخرة دفعة واحدة، ثم ربتت يد عمران على كتفه تقرضه الاطمئنان:

"انس الخوف؛ فأنا معك الآن. لقد عقدتُ اتفاقًا معه، وصرت المسيطر الأمين هنا"

"نعم، مريض بالسأم من الدور الذي يضلع به منذ آلاف السنين، وهذا يبشر بإمكانية الوصول لاتفاق معه"

"المسيطر الأمين ها هنا"

"صرت الأمين هنا"

التفت خاطر بسرعة إلى رفيقه بالخلف، فوجد جلبابه يتطاير مع نسمات الهواء، وإن تحار من أين للنسمات أن تدخل مقبرة موصدة؟!!

ارتفع عمران نفسه في الهواء بضعة سنتيمترات، ففقد خاطر إحساسه بقدميه.

المسألة أوضح من أن تحتاج لتفسير؛ لقد عقد صديقه اتفاقًا -كما لمح- مع الرصد السائم، فاستراح الطرف الأول من مهام منصبه، وعاد إلى العالم السفلي، بينما تولى الطرف الثاني الراية. وقَبِل أن يخلفه في الحراسة والأمانة.

كل مكان حوله ردد صدى عمران:

ـ نعم، كل ما دار بخلدك صحيح. والآن، يمكنك أن تظل معي يا خاطر، فنؤنس بعضنا في الليالي الطويلة.

راودت خاطر فكرة واحدة.. الفرار!

استعاد بالكاد إحساسه بقدميه، فألقى المبخرة من يده، وأسرع بقدر ما سمح له إعياؤه.

لا يعرف خاطر أصلًا كيف أكمل طريقه، هرولة.. أم زحفا؟

تعقبه الصدى ليدوي في أذنيه:

ـ "انتظر يا خاطر! لن أجبرك على شيء، ما أريده منك هو أن تعيد التفكير، تخيل فقط القوة فوق الطبيعية التي ستملكها، نظير حملك مشعل الأمانة

معي في حراسة الجبل، وكما قلت لك: نحن خير من يؤنسا بعضيهما في أسمار الصيف الممتعة. انتظر، بوسعنا أن نصل إلى... اتفاق"

عض خاطر شفته السفلى حتى أدماها، لماذا فعلت ذلك بنفسك يا صديقي؟؟! كيف ولماذا قبلت؟؟!

تعثر عشرات المرات أثناء فراره، في درجات السلم، وأحجار الطريق، وفي ألمه ورثاءه لرفيقه.

ودّع المقبرة بنفس طريقته في العدو، دون اختلاس أدنى التفاتة إلى الوراء؛ فالجبل الآن في عهدة حارس أمين. قد تظن أن الشعوذة والأمانة صفتان لا يجتمعان؟ أنت مخطئ؛ فمعنى كلامك أنك لم تلتقِ عمران.

إنه ابن بلد، وعُجِن من صدق ترابها، حتى وإن لوثته ممارساته المظلمة، نجح أن يحتفظ بجزء نقي، يتشبث به، ولا يتنازل عنه. والآن، أخذه ذاك الجزء النظيف إلى مكان بعيد، ارتحل إليه -ويا للعجب!- بكامل إرادته.

وأخيراً طالعتْ خاطر أضواء القرية من جديد، هنا سقط.

فقد استنزف كل طاقات جسده، وأغمض عينيه، ليسافر إلى دنيا اللاوعي.

****

لملم خاطر أغراضه، واستعد للسفر. قاطعه رنين الهاتف، الذي أضاءت شاشته بالكلمة المضيئة المهيبة إياها: (الباشا).

تجاهل الإجابة، ليرد الهاتف -ثانيةً- إلى جيب جلبابه، ثم حمل حقيبته على ظهره، واستقبل بوجهه طريق الرحلة القادمة.

صافح بعينيه كل معالم القرية، بأكثر مما صافحت يده أهله وذويه.

كما تماسك قدر الإمكان وهو يصافح أخيه أمين -بالتحديد- وأسرته، ثم يغتنم قبلة من ابني شقيقه محمد و سارة.

لاحظ أن أحدًا لم يسأله: "لماذا؟"، أو "إلى أين؟"؛ فجميعهم كانوا يعرفون.

*مادة أساسية أخرى من دستور القرية:
ـ يخلو قاموس البلدة من كلمة (أسرار)؛ فهي تحوي كل شيء يتعلق باصطياد الحقيقة، بدءًا من حل الكلمات المتقاطعة، وحتى نبش قبور المجهول.
"لقد استنبطوا سبب اختفاء الشيخ عمران؛ بحثوا عنه في دروب الجبل حيث مقر مهنته المعتاد. علّهم سينتظرون فترة أخرى، ثم يستقبلون العزاء فيه. كما ربطوا أيضًا بين كوني آخر من خرج معه، وأنني أسافر الآن."
"أغلبهم خمنوا أنني مأمور من رَصَد أن أغادر في صمت، والحقيقة أنني مأمور بالسلطة الجبرية للذكريات."
حذّر خاطر كل زملاء التنقيب من الجبل، قال لهم أن الرصد هناك يعرفكم جيدًا، يعرف أسماءكم ونسبكم وعناوين بيوتكم، رَصَد أمين بكل ما تعنيه الكلمة من معان.
عدّل الرجل من وضع ما يحمله على ظهره من حقيبة ثقيلة وذكريات أثقل، ثم وقف على الطريق الأسفلتي الطويل، يرنو إليه وهو يمتد كثعبان طويل يلدغ الأفق، و....
ـ خاطر؟؟! كيف حالك يا ابن العم؟؟
ـ من؟! (غلاب)؟! أنا بخير الحمد لله، وأنت؟؟
بعد العناق والأشواق، أشار غلاب ناحية الجنوب:
ـ أنا عائد من السودان لتوي، و... ما هذي الحقيبة!؟ هل أنت مسافر بدورك؟؟!
وُلدتْ على شفتي خاطر ابتسامة مبتسرة، بينما يده تشير إلى الجهة المعاكسة:
ـ سأرتحل شمالًا.
ـ إشارة مرور.

ـ ماذا تقول؟!

تنهد غلاب وهو يبدد الضباب عن مقصده:

– أعتب على قريتنا التي صارت كإشارة مرور، أقصى ما تمنحنا إياه دقائق انتظار، وفرصة لإلقاء تحية عابرة، وفي النهاية تُبِعثر كل منا باتجاه.

****

الحاسة ٣:

التذوق

وراء الحاسة:

طعم المر

صيحة تتقطر شبقًا:

- هيا، إن الجثة طازجة، لم أعد أطيق صبرًا من الجوع!

صوت لابشري يُعقِّب:

- "إذن فلنكسر عنقه، ونخرجه"

تلفظت العيون بما تبحّ به الألسن، فدار هذا الحوار الصامت:

ـ توقعت أن تدافع عني يا أبي، أن تنتصف لي منهم.

ـ لا قِبَل لي بعائلاتهم يا حسين.

ـ من يحميني إذن، إن لم يقم والدي بذلك؟!

أفلت الصبي الحلوى التي تناولها له يد أبيه، وذهب إلى أمه على الدكة (•)، وسكن في حضنها، فاحتوته سهر صامتة، بينما تتحاشى النظر إلى غلاب.

ظل غلاب متأرِّقًا طوال الليل، سهر تتقلب بجواره في الفراش، أواه! إن عينيها بعض الليالي تفتح وتغلق أثناء نومها، فتبدو مخيفة!

تحول عنها غلاب؛ فالأكثر تأثيراً بالنسبة إليه هو نظرة حسين، كم هي قاسية لحظات الضعف! تلك اللحظات التي تكره فيها نفسك!

لقد ذهب -فعلًا- إلى برسي من يومين، ولكي نصف من هو (برسي) بالضبط، فهو في حجم باب الدار، وله من الإخوة وأبناء العم مَن يطابقونه تمامًا، ولا يتخيرون عنه، لذلك يستحقون عن جدارة لقب (برسي) (•).

شكا غلاب له أبناءه، فهاج الثور في وجهه:

ـ بل إن ابنك هو المذنب ولا يكف عن شجارهم. ستحسن صنعًا لو حبسته في المنزل، فلا يؤذي أولاد الناس.

نزل الحديث على قلب غلاب بمنزلة الإقناع، فحجم (برسي) يكسي أي شيء يقوله بثوب الإقناع.

بعد عدة أيام، عاد حسين من الخارج مسرورًا، سأله الأب:

ـ هيه يا حسين، ما بالي أراك مسرورًا اليوم؟

● الدكة: أريكة خشبية، أو لنقل أنها المقابل الصعيدى للـ (أنتريه).

● كلمة (البرسى) تعنى في لغتهم الدارجة (التوأم)، وأحيانًا تستخدم كاسم لرجل.

أجاب الفتى بالفعل لا القول؛ ففتح كفه بنظرة يتقافز فيها كم لا يصدق من المرح، مما جعل الأب ينظر داخل اليد، وارتعد!

فقد استقر بها ظفران صغيران، ظفران كاملان اقتلعا اقتلاعًا، واختلطا بدمائهما.

ـ من فعل بك ذلك يا حسيييين؟؟!

انتبه غلاب إلى أن ثمة خطأ؛ فالصبي لا يظهر عليه أدنى ألم. تفحص الأب يدي حسين بهلع، إنها سليمة!

ـ ومن قال إنهما لي، بل هي من محمد بن أبو برسي.

ـ أظافر من؟!

أضاء وجه الفتى بالانتصار، وأكمل:

ـ لقد تجمعوا حولي وأرادوا ضربي، فانتزعت بأسناني ظفرين من أقربهم إليّ، من سوء حظه أنه كان محمد. ليتك رأيتهم يا أبتِ! لقد جروا أمامي كالجبناء، وأخاهم بللوا جلابيبهم أيضًا.

لم يعرف غلاب هل يضحك أم يبكي؟

ـ نزعتَ ظفرين؟! ماذا دهاك يا ولد؟! هل عملت في أمن الدولة سابقًا؟!

على ذكر أمن الدولة، خيل لغلاب أنهم قدموا فور ورود اسمهم؛ فقد شعر بالباب يضرب بعنف، ولم يراع المقتحم حرمة البيت.

احتاج غلاب لثوان حتى يستوعب. إنه ليس أمن الدولة حتمًا؛ فذاك الجهاز تم حله أصلًا عقب الثورة، على حسب ما أكدت نشرات التاسعة حينها.

الوجه الغاضب؟ هو وجه برسي.. وهاتان الجمرتان؟ هما نار الثأر في عيني برسي.

ساوى الجار كرامة غلاب الأرض، وأذاقه علقة ساخنة أمام زوجته وولده الوحيد، فلم ينقذه سوى تدخل أولاد الحلال.

وبينما خده منغرس في التراب، ترنح عقله على أرجوحة الدوار، والذكريات.

كوم أمبو، دنقلة.
ثم دنقلة، كوم أمبو.
لا يذكر غلاب كم مرة تمزق في ذاك السفر الطويل، ما بين ذهابٍ وعودة. والأسباب التي تجره لذلك كثيرة ومتباينة، ونستطيع حصرها في: الفقر، ثم الفقر، أما السبب الثالث فهو أكثرهم قسوة؛ إذ أنه الفقر أيضًا!
فالوادي يلفظ أبناءه كما يقولون. الرقعة الزراعية ضيقة، والأرض الجديدة ذهبت إلى كروش الكبار أو الأغراب، إذن لا بديل عن السفر؛ إنه الحل المرير الممتع، والذي يكفل له الهروب كذلك، وما أدراك ما (الهروب) بالنسبة لغلاب!
في البداية، تاه (غلاب) في نفق السؤال المحير: إلى أين يسافر بالضبط؟
الأغلبية يرتحلون شمالًا، حيث الفرص أوفر-دائمًا- هناك، أو كما يفصح -بوضوح- مثلهم الشعبي: (سافر بحري مسافة يوم، أفضل من تسافر قبلي مقدار سنة).
فكر (غلاب) مليًا، وعزم السير عكس التيار، شجعه على ذلك (طه)، رفيقه الذي ينتمي إلى قرية مجاورة سيتجه إلى قبلي، إلى السودان نفسها.
يقلع (غلاب) من قريته (السبائك) التابعة لمركز (كوم أمبو)، ومنها إلى مركز (دراو) المجاور، معقل قبيلة (العبابدة)[•]، والمحطة الأشهر لتجارة الجِمال،

• قبيلة عربية يرجع نسبها إلى (عبد الله بن الزبير بن العوام)، الذي أعلن نفسه خليفة على المسلمين إبان الدولة الأموية، واستقل بالحجاز والمدينة والعراق ومصر، حتى قُتل على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، فنزح بنوه إلى جنوب مصر، أطلق عليهم بعض المؤرخون "حماة الصحراء" لدورهم البارز في فتح السودان عام ١٨٢٠م، واشتباكهم المباشر في معارك الثورة المهدية، وتلك الأخرى التي مهدت لاستعادة السودان للوحدة تحت سلطة الحكومة المصرية. كما أن المعلومات عن تجارة (الجمال) ومسار (درب الأربعين)، حقيقية.

ومن هناك تبدأ الانطلاقة الطويلة عبر طريق درب الأربعين، فتشق الصحراء لأجل جلب رسائل البضاعة من المدينة السودانية (دنقلة).
أخيراً تعود القافلة بالطريق البري، وطوال الطريق يسدون الأفق بزحفهم المهيب، يشمخ غلاب على راحلته من اليمين، في حين يقودهم طه من الأمام، وينتشر رفاقهم العبابدة على بقية الأطراف، جميعهم ينصهرون في جسد واحد، فيفرضون سيطرتهم -باقتدار- على القطيع، ويردون بحزم ما يشرد عنه من رحال، إلى أن طرأ الحدث الفارق، وشرد (غلاب) ذاته عن القافلة.

****

ـ هل لديك القدرة على مواجهة أهليك؟ وإقناعهم بالزواج منها؟
تساءل طه.
ـ لقد ضغطتَ على موضع الوجع يا طه، إنها المواجهة، وآه من عبء المواجهة!
تنهد غلاب.
عندما وصل غلاب إلى (السبائك)، ألقى متاعه، والتقط أنفاسه، ثم حدَّث أسرته عن ندَّاهته.
ـ اسمها "سهر"، تنتمي لأحد القبائل الحدودية، إن قلبي معلق بها، لن أقترن سوى بها.
وبعد طول شد وجذب، انتزع غلاب موافقتهم انتزاعًا.
في القافلة التالية، جلس غلاب مع كبار عشيرتها، وطافت بكارج القهوة العربية بالمجلس.
وبينما يحتسي العاشق فنجانه، طلب يد سهر، للحق.. توقع ممانعة ما، خصوصًا أنه سيأخذها معه إلى (السبائك)، تلك نقطة لا جدال فيها بالنسبة إليه، لكن للمفاجأة، لقي حبروًا عظيمًا منهم، بالذات فور علمهم أنه

(جعفري)(●)، وبان أن لـسهر منزلة خاصة؛ إذ امتنعوا عن إبداء الرأي النهائي، وأوقفوه على رأيها هي.
دخلت سهر المجلس على استحياء، فذاب قلب غلاب وجدًا على إيقاع دقات خطاها، لم يصدق أذنيه عندما سمع كلمتها المتهجدة:
ـ مـ وا فـ قـ ـة.
عاد غلاب إلى قافلته بصحبة غادته السمراء، وقال بكلمات تمطر سعادة:
ـ هيا يا رجال، الآن يمكننا شد الرحال.
أشار طه معترضًا:
ـ كلا، ليس بعد.
نظر إليه غلاب بتعجب، فأفصح طه:
ـ أبيت إلا أن أصبح عديلك، يا ابن العم.
لقد مرض طه بصبابة الحب بدوره، وتعلق بنعمة، أخت سهر.
عاد الرفيقان وقد صاروا أربعة، وفي منتصف الطريق، توقفت القافلة للراحة، أعدت الزوجتان العشاء على (الكانون)، والكانون هو النار التي توقد بالحطب بين عدد من الأحجار، بينما على بعد أمتار، تسامر غلاب وطه مع رفاقهما العبابدة.
اتكأ طه على مرفقه الأيمن، ورد نصف شارد:
ـ أوتعرف يا غلاب؟ إني مدين لشجاعتك إلى الأبد؛ فقد صمدت أمام أسرتك كالوتد، وأصررت على الزواج بسهر، مما ألهمني أن أحذو حذوك بدوري.
قهقه غلاب عاليا، دون أن يعلق.
ـ ما الذي يضحكك يا رجل؟

● الجعافرة: قبيلة عربية تنتمي لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، عبر نسل الإمام جعفر الصادق، حفيد الحسين بن على رضي الله عنهم، ومن الثاني اشتق اسمها.

ـ هههه، يضحكني كلامك -هههه- عن شجاعتي. كلا يا صاحبي، لم أكن شجاعًا كما تظن.

انقلب غلاب بغتة إلى الجدية:

ـ لقد ساعدتْني قوة أخرى، قوة لا تعرفها إلا بعثورك على الأنثى التي تكملك، وتجد علمها مرفوعًا أعلى قمة قلبك، ربما نضعف عن حماية أنفسنا، أما عندما يتعلق الأمر بحماية علـ...

"غلاااااب، الحقني يا غلااااااب! إنه وحش!"

بتر غلاب حديثه، فقد هزته ورفاقه تلك الصرخة الطويلة. التفتا بسرعة، لقد تركت سهر أختها نعمة تكمل الطبخ، وابتعدت قليلًا لجلب المزيد من الحطب، الآن يرون سهر تتراجع بخوف أمام كائن مبهم.

انتفض غلاب بينما يسحب عصاه سريعًا، وهرع لنجدة العلم، فتبعه كالبرق طه ونعمة والآخرون.

أثارت خطاهم شراذم الرمال، وإن ظلت المشكلة أن (غلاب) لا يعرف ما سيواجهه بالضبط، كلمة (وحش) غير محددة، حيث تتضمن دلالات كثيرة هنا في أسوان؛ قد تعنى الذئاب، أو الضباع، أو أبناء آوي، أو....، أو....

حتى عندما وصل غلاب، لم تتح له الفرصة ليعرف، فقد وجد طيف يعدو هاربًا فوق أربع، وعلى بعد أمتار، رقدت زوجته أرضًا وهي شبه منهارة، لم يستوعب (غلاب)، ثم أجّل مسألة الاستيعاب هذه لما بعد، هرع يدرك حبيبته المسجاة أرضًا:

ـ سهر، لا تخافي يا سهر، لقد رحل.

ارتمت سهر بين ذراعي (غلاب)، فنسي الرجل الوحش، ورفاقه، والصحراء، بل واسمه حتى.

توقف الرجال وراء ظهر غلاب؛ لقد اطمئنوا على ابتعاد الخطر فعليًا، وبدأ الموقف يتحول للحظة خاصة بين الزوجين، فانسحبوا واحدًا تلو الآخر،

آخرهم نعمة، التي تجمدت في مكانها للحظة، ونظرت -بخواء- إلى حيث فر الوحش، حرر جمودها يد طه، حيث انتبهت لكفه وهي تمس كتفها، ثم استجابت لإشارته باللحاق بالآخرين.
احتضنت سهر زوجها بشدة، وقالت بين عبراتها:
ـ لا تتركني أبدًا يا غلاب، لقد خفت كثيراً.
مازحها غلاب:
ـ ما أراه -فعليًا- أن الذئب هو من خاف؟

****

عاش غلاب في تبات ونبات، فلم ينغص حياته سوى طوارئ بسيطة من حين لآخر، تلخص أغلبها في مرض (سهر) على فترات؛ حيث ترتفع حرارتها إلى حد مهول، وتشتكي أن كل شيء في فمها يتحول إلى طعم المر، الغريب.. أن المرأة لا تمل من طمأنة زوجها:
ـ لا تقلق عليّ يا غلاب؛ إنها مجرد سخونة عابرة. أما المر، فقد ولدنا لنجده يسكن حلوقنا.
ـ ماذا تقولين!؟ كيف تتعاملين مع كل ذلك على أنه أمر طبيعي!؟
فتحتويه سهر بابتسامتها وذراعيها معًا:
ـ لأنها كذلك فعلا؛ فهي ترافقني منذ ولدت.
لا يزال غير مقتنع:
ـ وماذا عن التشنج الخفيف الذي يصاحبها؟ وتغير لون وجهك؟
ـ إنها أيضًا عوارض تذهب لحالها، فلا تراع يا (زول).
اخترقت ابتسامة وجه غلاب المتيبس؛ فـ (يا زول) تعني (يا رجل) باللهجة الحدودية، إن سهر لم تنس عاميتها الأصلية، ولا تزال تسحره بمفردتها.
لم يستسلم غلاب، وجاهد لفرض رأيه:

ـ لِم لا تطاوعينني يا سهر؟ إن الشيخ صالح على بعد خطوتين. أنا واثق أنك محسودة، أو أن هناك من عقد لك (عملًا). ماذا يضيرنا من الذهاب ومن ثمّ الاطمئنان؟!

لم تطاوع سهر غلاب يومًا، وأصرت أنها بخير، أو على حد تعبيرها:

ـ وليه أروح لشيخ؟! أنا (هلو) وعال.

هنا ينهار عناد غلاب، ويستسلم للذوبان بين أصابعها، فيكرر مقلدًا:

"عندك حق، أنت فعلًا (هلو وعال)"

غاص الحبيبان في نهر العناق، وتسليا معًا بالسقوط إلى الأعلى؛ وبينما وصلا إلى عنان السماء، يفاجأ غلاب بعادتها الغريبة؛ إذ تمرر أسنانها على وجنته، ثم عنقه، وتنشبها فيه، مما يجعل غلاب يشتمها بنزق، لا بغضب؛ فأثناء غيبوبة الحب، لا أحد يبحث عن منطقية لممارساته، ثم علها تحاول أن تتذوق في حبيبها ما تكسر به طعم المر. آه، يا سهر، كم أعشقك!!

بعد فترة، ألمت بـسهر أعراض مختلفة، تلك الأعراض التي تبشر بقدوم ولي عهد.

لم يصدق غلاب نفسه، إن عصا السعادة السحرية مسته، فمنحته الدنيا من كامل أطرافها، ماذا يمكن أن يتمنى أكثر؟!

لديه مليكته سهر، وولي العهد حسين.. أصر على تسميته بهذا الاسم المبارك.

ورث حسين حُسن أمه، فاعتبر غلاب ذلك من حُسن الطالع، وعندما كبر الطفل، أدرك غلاب أنها ليست مزية خالصة؛ فقد أثار ذلك حسد أقران الصبي، وأشبعوه استهزاءً بسببها؛ ففي عرف الأطفال: الوسامة نقيض للرجولة.

كل يوم يرجع حسين إلى أبيه مقهورًا، ويشتكي له أولاد جارهم (برسي). تراقب الأم الموقف عن مبعدة، وتشاهد الأب يطيِّب خاطر حسين، ويمنحه بعض الحلوى.

ـ كفكف دموعك يا ولدي، إنهم يغارون منك، تجاهلهم تمامًا ولا تأبه بهم.
رمق الابن والده بأعين خاوية؛ فقد توقع رد فعل أكثر حمية.
رفض الحلوى ليتركها تسقط في يد أبيه، وعزم في نفسه أمرًا، حتى كان منه ما كان.

****

أيام طويلة مرت على غلاب كالدهر، لا يعرف أيهما أشد وجعًا؛ نظرات عائلته، أم نظرات الناس؟!
الآن -فقط- ذاق ما تشتكي منه سهر، وعرف شكل الدنيا عندما يكتسي كل شيء فيها بطعم المر؛ فصار يبدأ يومه بالاستيقاظ على ريق كالحنظل، ثم يكمل بقيته مبتهلًا بأمنية واحدة: أن تنشق الأرض وتبتلعه على غير رجعة.
حتى ابنه حسين.. تحاشى النظر إلى والده، وقد وقر داخله الإحساس بالذنب.
كلا يا حسين، لا يمكن أن ألومك.

كيف تنظر في عيني امرأة وأنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟
كيف ترجو الغد لوليد ينام،
وهو ينمو بين يديك بقلب منكس؟

لم يسمع غلاب أنشودة أمل دنقل تلك قبلًا، لو سمعها (لبصم بالعشرة) أنها لسان حاله.
جال في خاطر أن يطلق سهر، ثم استبعد - لفوره- تلك الفكرة المدمرة. لا يوجد سوى المهرب المعتاد إذن. اتجه غلاب إلى زوجته بينما ييمم وجهه صوب اللامكان:
ـ سهر، سأسافر في قافلة غدًا.
قرأت سهر ما يعتمل بأعماقه:

ـ غلاب! قلت مسبقًا أن القافلة القادمة بعد أسبوعين!
ـ تم تقديم الموعد.
تأملت سهر ملامح رجلها، وتحسست وجهه، في المقابل، انقبضت ملامح غلاب، إذ شاكته أناملها؛ أبعد ما يحتاجه الآن هو الشفقة.
واجهت سهر زوجها:
ـ لا تبتعد يا غلاب، لا يوجد أصلًا سبب لتبتعد من أجله.
ـ ماذا تقولين؟!
تعلقت المرأة بذراعه، وأجلسته إلى جوارها، ووضحت له بينما تعتدل:
ـ زوجي الحبيب، أردت تجاهل الموضوع تمامًا حتى لا أجرحك، لكنني ألاحظ حزنك المبالغ، لذلك سأكلمك بواقعية. برسي سيحدث له ما يستحقه يومًا، اترك ذلك للقدر، أما بخصوص ما حدث فسينساه الناس مع الوقت، وينتقلون للنميمة حول غيره. لا تظن يا حبيبي أنك محور الكون، وأن الجميع سيتذكرون الواقعة لألف عام، لو ظننت ذلك فإنك -حقًا- مغرور.
سكبت زوجته بعض المرح على جملتها الأخيرة، بينما تصلب وجه غلاب:
ـ أنتِ مخطئة يا عمري؛ إن ما يؤرقني أكثر هو أنتم، ألوم نفسي طوال الوقت أنني لا أستحقكم، لطالما كنت رجلًا يسكنه الخوف، أخاف من كل شيء وأي شيء، ولو أردت قولها صريحة، فأنا (جبان).
ـ لا تقل ذلك؛ إن ما حدث هو محض استثناء عارض، أنسيت أنك تجول الصحراء بلا انقطاع، تحمي قطعان جمالك؟!
استند غلاب إلى ظهر الدكة، أو بمعنى أدق ألقى نفسه إلقاءَ:
ـ كلامك صحيح؛ أنا أغامر -بلا انقطاع- في الصحراء، وجدت ذلك حلًا لاكتساب الجرأة، فإذا بحالي كما هو؛ فالوحوش تَرهب التعرض لقطعان، فاكتشف أن الجمال هي مصدر طمأنتي، لا العكس.
داعبت سهر شعره باسمة، وخاطبته بهمس خفيف:

ـ هذا أجمل ما فيك.
ـ أتقولين: أجمل ما في (افتقادي الجرأة)؟!
ـ لم أقصد، بل عنيت أن أجمل ما فيك، هو عدم توقفك عن المحاولة.
استعادت سهر كامل جديتها:
ـ من منا لا يخاف يا غلاب؟! لكنك رجل فريد من نوعك، رجل قادر على أن يصادق الخوف، دون أن يتركه يتحكم فيه لثانية. صدقني، لو أن الخوف امرأة، لما رضت بغيرك زوجًا.
بدلًا من أن يتضايق غلاب، استسلم للابتسام هذه المرة:
ـ يا لتشبيهاتك الغريبة! بالمناسبة، لون وجهك بدأ يتغير، لقد اكتسب ذلك الابيضاض الذي تعرفينه.
سُرت سهر بابتسامة زوجها، فسعت لتغيير الموضوع قاطبة:
ـ أسمعت بالزوبعة؟
الزوبعة هي الرياح الحلزونية المحدودة، والتي تتدثر بثوب من الأتربة الكثيفة، تعتبر في عرفهم نذير شؤم؛ إذ تعبر - في موروثهم الشعبي- عن... الشيطان.
لاذ غلاب ببعض لحظات التدبر، ثم رد بأن الأقاويل تملأ البلدة حولها، يشاع أنها تقدم كل مرة من ناحية النيل غربًا، وتحوي داخلها عددًا من الجان، اللهم احفظنا يا رب، وهم يرتدون ثيابًا طويلة كالدراويش، وتجول ظلالهم المبهمة داخل الزوبعة، مرسي المعتوه صوّرهم بالجوال، ويجري بين الناس ليل نهار يريهم الصور، هناك آخرون ادَّعوا اختراقهم للزوبعة، وأقسموا على رؤيتهم مباشرة، وهناك من أنكر وقال إنها تهيؤات.
أضاف غلاب بخفوت:
ـ أظنني أميل إلى الفئة الأولى؛ فقد.... فقد رأيتها قرب البيت أكثر من مرة.

استعاذت سهر بصوت مسموع، ثم نهضت ترتدي عباءتها، وتحدثت بمرح مرتبك:

ـ لا تخيفني؛ فأنا أزمع الخروج الآن.

ـ إلى أين؟

التقطت سهر الطرحة المطرزة، وأدارتها حول رأسها بسرعة ساحرة.

ـ ذاهبة إلى نعمة، مضت مدة منذ رأيتها آخر مرة.

ـ إن العصر قد أذّن من مدة، والمسافة بعيدة إلى قريتهم، حتمًا سيجن الليل قبل عودتك. عجيب أمرك يا سهر؛ تتكلمين دومًا عن خوفك من الليل، وفي نفس الوقت، لا تزورين أختك إلا أثناءه!

ـ لأنها تنشغل بمساعدة زوجها طوال اليوم، فأضمن أن تكون شاغرة، ونثرثر سويًا، وبالطبع لن أتأخر لما بعد المغرب بكثير.

ـ هل أصحبك؟

تحاشت سهر النظر لزوجها:

ـ لا داعي لذلك؛ سأذهب وأعود سريعًا كما أخبرتك.

فهم (غلاب) مرادها، لقد أرادت القول أن:

ـ يستحسن ألا تفعل؛ فقد يحتك بك برسي في الشارع، والموقف لم يبرد بعد.

****

لم يكن غلاب قد استيقظ تمامًا بعد، فأقلق مضجعه أصوات بكاء وعويل، ظنه في البداية جزءًا من نومه، فتثاءب، وتململ في سريره محاولًا النعاس مرة أخرى.

"استيقظ يا غلاب، استيقظ"

"برسي مات"

هب غلاب من نومه، وركل كل أثر للنعاس من عينيه:
ـ ماذا تقولين يا سهر؟!
وضعت زوجته يدها على رأسه، وكررت:
ـ برسي مات.
لم يعرف غلاب بماذا يشعر بالضبط؛ بالتأكيد لا مجال للشماتة، ليس هذا ما تربى عليه، فتمتم بصوت خفيض:
ـ وكيف حدث ذلك؟!
علقت سهر لحظات على أرجوحة التردد، ثم أفصحت أخيراَ:
ـ قبل أن أخبرك، هل أنت متمالك لأعصابك، وستتحمل سماع التفاصيل؟
ـ لماذا تقولين ذلك!؟
ـ لأنه مات بأشنع وسيلة.
شرحت المرأة بعيون متسعة كيف خرج إلى الحقل في منتصف الليل، وفتح قناة الترعة على أرضه، ثم تركها تُروى على أن يعود مرة أخرى، حتى هذه اللحظة رآه الكل، وأكدوا أنه كان بخير، بعد أربع ساعات عاد إلى أرضه مرة أخرى، وهناك التقى الوحش.
لم يفهم غلاب ما تعنيه بلفظة (وحش)؛ فكما نذكر، هي تتضمن دلالات كثيرة هنا في أسوان. في المقابل، وكأنما سهر سمعت خاطر زوجها، عقبت بأن أحدًا لم يعرف أحد ما واجهه برسي بالضبط، من الواضح أنه أشرس كائن على وجه الأرض؛ فقد عثروا على القتيل ممزق العنق، كـ.... كما أن هناك أجزاء منهوشة من بطنه، يا أرحم الراحمين!
ـ لقد اقتلع طعم المر من حلقي، منذ سمعت الخبر الشنيع.
تمالك غلاب بصعوبة تقلص معدته، بينما يذهب عقله في تفكير عميق؛ الواجب يحتم عليه أن يذهب للعزاء، في المقابل، كرامته تمنعه من ذلك، كرامته التي سحقها جاره المُتوفَّى ذات مرة.

إن المسافة بينه وبين منزل برسي تقدر بالأمتار، بينما الحاجز النفسي يساوي ما بين السموات والأرض.
خاض غلاب صراعًا نفسيًا شرسًا، ثم انتصر اقتناعه بالواجب.
ـ "ماذا تقول يا غلاب؟! أستذهب للعزاء، وتطلب مني أن أروحه أيضًا؟!"
رد غلاب بحسم:
ـ نعم؛ لأن هذا خُلُق الرجال.
همت سهر أن تعترض مرة أخرى، ثم سكتت.
خرج غلاب للعزاء أولًا، وفي الطريق شاهد الزوبعة تدور بطريقتها المترنحة، تبحث عن ضحية قادمة.
دق قلب غلاب بقوة، استحث الخطى إلى دار برسي المجاور، وهمس لنفسه برهبة:
ـ يا إلهي، لم تحاصرني كل وجوه الخوف اليوم؟!
وما إن دخل بيت برسي، حتى دق قلبه بعنف أكثر، ووجد الأنظار كلها تتعلق به، يا له من موقف!
استجمع غلاب شجاعته، ومد يده إلى علي شقيق برسي، وخاطبه مصافحًا:
ـ البجية في حياتك يا واد عمي.
انتابت علي مشاعر عدة بدوره؛ الحزن، الغضب، عدم الفهم.
في النهاية، لم يجد بدًا من مد يده بدوره، ورد بصوت جامد:
ـ حياتك الباجية يا أبو حسين.

****

جلست سهر على طست الغسيل، وفجأة اعتصرت معدتها بتوجع، انتبه حسين لفوره، فهرع يشدها من طرف جلبابها:
ـ أماه!! ماذا بك؟؟!

أبعدته سهر برفق، ونهضت تتعثر من الألم. من الناحية الأخرى، جاء غلاب على صوت الجلبة، وهرول يلتقط زوجته بين ذراعيه يسألها عما بها؟

تملصت زوجته من بين ذراعيه، وانثنت على معدتها بألم، فاتخذت هيئة علامة استفهام، اعتصرت معدتها بيد، وأشارت لفمها بالسبابة الأخرى، إنها تريد أن تتقيأ.

سند غلاب قرينته لخطوتين، ثم أفلت خصرها، وبعد دقائق من التلوي والألم، أفرغت ما في معدتها.

تأملها غلاب بأعصاب تحترق على جمر القلق، ثم استحال قلقه إلى ذهول؛ فقد لاحت منه التفاتة إلى القيء.

لقد احتمل الرجل المنظر المقرف، والسبب بسيط:

أن ذهوله كسر تقززه، حيث لم يغلب على القيء لون المياه، أو طعام الأمس، بل ساده اللون الأحمر الدموي، ويضاف إليه هلام جلدي بشع، هذه علامة مرض لا شك.

قلب غلاب شفتيه، ثم انتبه فجأة إلى زوجته المتوعكة، فأسرع يسندها ثانية، وأجلسها على الدكة القريبة.

صاح غلاب بصبيه:

ـ حسين، كوب من الماء بسرعة! -ثم وجه حديثه إلى سهر- أخبريني هل أنت أفضل الآن؟

ـ كثيراً.

تركها غلاب تشرب من يد حسين، وعاد إلى القيء. انحنى على الهلام الأحمر يتأمله، أهذا هو المر الذي تحدث عنه سهر؟

إنها محقة في منحه هذا الوصف، دقق النظر أكثر، أيمكن أن يكون....

قطعت سهر تأملات زوجها؛ فقد جاءت ببعض التراب، وأهالته على الخليط المقرف.

ـ آسفة على هذه الفوضى.
انتهى الموقف عند هذا الحد، فعاد غلاب إلى مدخل البيت، وجلس على الدكة هناك، أما سهر فقد أنزلت الجرة عن كتفها، وأفرغت المياه في طست الغسيل.
ماذا كنت سأفعل بدونك يا سهر؟! لولاك لكنت حطام رجل.
مَن غيرك استطاع احتوائي وضمي؟! لكن قدري -بكل أسف- أن أظل محاطًا بظلال الخوف.
ـ لدي مشكلة برسي وموته المفاجئ، والعاصفة الترابية، وأنتِ يا سهر، حتى أنتِ محاطة بدائرة الشك!
إنكِ لم تتركيني أعرف أبدًا: هل أنت ممسوسة أم مريضة؟ وفيم رفضك الذهاب للشيخ صالح؟ إنكِ تتقيئين هلامًا أحمر، فإذا لم نذهب للشيخ الآن، فمتى؟!
همَّ غلاب أن ينهض، ويتجه إلى سهر، فيصحبها إلى صالح حالًا، وفي آخر لحظة سكن في مكانه. هناك شيء ما أعاقه، إنها تلك الخواطر أضرمت في ذهنه.
ـ غلاب، سأذهب إلى نعمة اليوم أيضًا، لقد أوحشتْني تلك الخبيثة.
قالتها سهر وهي تنثر كفيها المبللين، ثم تمسحهما في ثوبها، فأجاب غلاب بود مراوغ:
ـ أها، خيرًا تفعلين؛ فلقد أوحشني طه أيضًا، سأرافقك.
ردت سهر ببراءتها العذبة:
ـ لا يمكن أن نترك البيت وحده. مممم، حسنًا سأذهب أنا اليوم، وندعوهما للعشاء -طه ونعمة- يوم الجمعة.
ـ لقد أقنعتِني. إذن سأخرج الآن إلى المقهى. يمكنكِ أن تنصرفي وتتركي البيت بأمان؛ إذ لن أطيل هناك.

ارتدى غلاب جلبابه البني، واتجه خارجًا. إن الشك ينهش قلبه، وبالتالي اتخذ قراره؛ سيتبع سهر.
ودوى في عقله صدى عبارة زوجته:

"برسي سيحدث له ما يستحقه يومًا، اترك ذلك للقدر"

****

كَمُن غلاب في طرف الشارع، وانتظر خروج زوجته. فجأة، طرأ ما لم يخطر بباله؛ سمع صفير الرياح من خلفه، خمن غلاب ماهية الصفير قبل حتى أن يلتفت؛ إنها الزوبعة!
وبنظرة جانبية رآها، كما لمح الظلال المبهمة التي تجول داخلها، ظلال لا تكف عن الدوران.
جاهد غلاب للفرار بجلده، فأدار ظهره للزوبعة موليًا الأدبار. تحول الأمر إلى سباق سرعة، الرجل في تحدي مع زوبعة، وبالطبع حسمت الثانية الفوز، فلحقت الأتربة الحلزونية بغلاب، واحتوته بين براثنها.
توقف منهكًا ليتمالك أنفاسه المتلاحقة بصعوبة، رحماك يا ربي! هذه إذن حقيقة الظلال، إنهم بالفعل غامضون يجلسون القرفصاء، منظرهم أقرب إلى الدراويش كما قيل مسبقًا، أو هم أقرب لكهنة قادمين من مشاهد لفيلم خرافي، ويدورون حوله بسرعة رهيبة.
هذا في حد ذاته أمر مرعب؛ كيف يدورون وهم في الوقت ذاته قعود!؟
لم يفهم غلاب، ولم يتبق في عقله وعي كي يفهم. الغامضون يلفون بسرعة أكبر، فصار يميز -بالكاد- حركتهم البرقية. التراب في كل مكان، لكنه -لسبب ما- لم يزدحم أمام عيني غلاب، وكأنما قصد أن يرى بوضوح.
وصلت رهبة الصعيدي إلى ذروتها؛ إذ وجد التراب يتكاثف، ثم تعانقت ذراته مع بعضها البعض، وكوّنت مشهدًا مجسمًا لزوجته، بالإضافة إلى خلفية

ميّزها غلاب لفوره؛ هناك قبور، شواهد، سبيل لسُقيا المياه.. إذن هي جبّانة القرية.

تمرمغ مجسم سهر في التراب، وفي النهاية، أطل من الوجه المليح انطباع بشع، إن ملامحها نفسها لم تتغير، الذي تبدل هو طلة وجهها، فصارت أقرب للشياطين.

أشاح غلاب بوجهه بعيدًا، لا يستطيع أن يرى المزيد. أشار له الدرويش المواجه بإبهامه؛ إنه يطلب منه إعادة النظر.

ـ لا أريد، أنتم شياطين، شياطين تسمم صورة زوجتي.

أطلق غلاب رصاص كلماته بشحن مبالغ فيه، ونسي أن صورة زوجته مسممة أصلًا، وما خرج من بيته ساعتها إلا ليراقبها.

هز المبهمون رؤوسهم نفيًا، ثم أشاروا له ثانية أن يتابع، وألح كبيرهم في الإشارة، وكأنما يقول:

"لا يزال هناك المزيد"

لم يستطع غلاب كبح فضوله تمامًا، فأفلتت منه خائنة أعين، وانتبه أن زوجته لم تكن وحدها، إن شقيقتها نعمة معها، نعمة أيضًا يطرأ عليها نفس التحول؛ كلتاهما تتقدمان نحو القبور بثبات، تفتحان أحد المقابر الحديثة، وتقتاتا من لحم ساكنها، من الواضح أن سهر تفضل العنق؛ إذا رآها تقبل عليه بشهية واسعة.

أغمض غلاب عينيه بقوة، سعى لطرد الصورة البشعة، لكن للأسف ذلك لم يكن حلًا؛ فقد استرجع خياله ما هو أكثر قسوة؛ لحظاته العاطفية مع سهر، وانحدار قبلاتها إلى وجنته، ثم عنقه، وتحولها حينئذٍ إلى عضات.

"أخالني متزوج من وحش"

قالها لها نزقًا في إحدى تلك اللحظات، ويبدو أنه نطق بالحق حينها، وإن لم يعيه.

تساءل غلاب وهو يكاد يجن: كيف كان مذاق جلدي تحت لسانها؟ أي طعم كنته؟ ولماذا لم تلتهم عنقه بدوري، فقد أسلمته لها بإرادتي ألف مرة؟!
لعل في الأمر خطأ؛ لا يمكن أن يكون الوجهان لنفس المرأة؛ كيف تجتمع الملائكية والتوحش داخل نفس الأنثى؟!
ذبح سكين الضياع عنق غلاب؛ فقد اختلطت داخله كل الحقائق، لم يعد يدري أي شيء. أخيراً قرر التشبث بأمل أخير بزغ فجأة في رأسه. لعل زوجته مظلومة؛ فما يراه الآن ليس دليلًا، وما راوده -سابقًا- لا يعدو عن ظنون.
أولى غلاب ظهره للعرض المجسم، واندفع ساعيًا للهرب. في كل الأحوال، لن يثق في حقيقة يجسدها له غبار، ويقدمها له جان، فأخذ يجري ويجري، حتى اختلطت الاتجاهات عليه، ومهما عدا، لم يتغير موقعه في قلب الزوبعة، وكأنما تسير معه كظله، فيجد نفسه كما هو، في مركز دائرة الترابيين، جميعهم لهم نفس الملامح، والتي خيل لغلاب أنه رآها قبلًا. أطرق كبيرهم بأسف، بينما رفع كفيه جانبًا.
رفع غلاب رأسه إلى الأعلى، ورفع معها عقيرته:
ـ من أنتم أصلًا؟؟ ولماذا آلف وجوهكم كأنني أعرفها سابقًا؟! نعم، أنا لا أصدقكم، ولا أريدكم، فماذا تريدون أنتم مني؟
رفع الأكبر رأسه بعتاب أخرس، وسرعان ما اندمجت أجساد رفاقه في جسده ليصيروا واحدًا، وتقدم نحو غلاب ببطء.
واضح أنهم لا يتكلمون مطلقًا، لغتهم الصمت، ولسانهم هو ذاك التراب المجسم الذي ينذر عنهم.
تراجع غلاب، وقلب بصره بين كل الاتجاهات بيأس:
ـ ماذا تريد مني؟ ألم تسمع ما قلته؟! اتركني لحالي، اتركووني.
فرد الدرويش الأكبر كفيه إلى السماء، وتجمعت سحب ضبابية عند أنامله، ثم تاهت معالم جسده وراء زحام الغبار، وفي لحظة واحدة تلاشى هذا كله.

لفظت الزوبعة غلاب فجأة، تمامًا كما ابتلعته فجأة، حتى صفيرها العالي، تراجع ليخفت سريعًا.
التفت غلاب خلفه، فوجد الزوبعة ترحل حثيثًا، وتضاءلت كتلتها إلى حد كبير، فصارت في حجم رجل قائم، ثم كرة صغيرة، وأخيراً تلاشت.
سقط غلاب ليرتكز على ركبتيه، وحارب لالتقاط أنفاسه:
ـ ياه!! أخيراً نجوت!! أخيراً غَرُبَ الكابوس!!
استغرق غلاب وقتًا لاستعادة ثباته، ثم تلفت حوله، ولفت نظره شيء غريب؛ لقد حل الليل! كما أنه ليس أمام شارعه، إنه وسط المقابر!! يا رحمن يا رحيم!! كيف حدث ذلك؟! لقد كنتُ بجوار المقهى على أطراف النجع الشرقي، وعلى يميني دكان ولاد (شعبان)! بينما تبعد الجبّانة عني بكيلومتر كامل! كيف اختصرت تلك المسافة إذن؟! أم أن الزوبعة فوق الزمان والمكان؟!!
إنها تحوي العجب العجاب، أفَتَراها تحمل الصدق أيضًا؟؟
ارتجف غلاب فرقًا وبردًا، وسار عدة خطوات إلى الأمام، فتحرك بين القبور بحذر، وأحس بشواهدها الحجرية تراقبه، بينما سعف النخيل على قممها يتوعده.
تفادى غلاب وطء المقابر بقدميه، تعثر -أحيانًا- بأكوام الحصى، وفي أحيانٍ أخرى، اشتبك سعف النخيل بجلبابه، لم يعرف إلى أين يتجه؟ وماذا يريد؟
تذكر بغتة، لقد خرج ليتعقب زوجته، عله يهتدي ويقتل شكوكه، ثم اعترضته الزوبعة. في تلك اللحظة انتبه غلاب إلى أصوات كزئير مكتوم، هذا ما كان ينقصه.
الأصوات قادمة من مدفن برسي وراء السبيل، تحرك غلاب من جديد، وحملته ركبتاه بالكاد، وهو يقترب أكثر.
وصل غلاب إلى سبيل المياه، واختلس النظر من ورائه، هناك جسدان

ينحنيان على القبر، ويشرعان في فتحه، لقد رأى غلاب ما يشبه ذلك منذ دقائق!

أدرك الرجل الحقيقة؛ أهل الزوبعة صادقون، لقد خرج يتقصى زوجته، فظن أنهم عرقلوا مخططه، ومنحوه مشاهد كاذبة عنها، الآن اكتشف كم ظلمهم! لقد منحوه الحقيقة التي أرادها، وعندما رفضها منهم، لم يرضوا أقل من اختصار المسافة عليه.

انتفض غلاب مع انطلاق زمجرة جديدة، المفترض أنها -وياللهول!- تصدر عن سهر، أو -بالأحرى- ذلك المخلوق الذي عرفه باسم سهر.

- هيا، إن الجثة طازجة، لم أعد أطيق صبراً من الجوع.

(صيحة تتقطر شبقًا)

- لقد علقت في القبر، هاتِ يدك معي وساعديني.

(زمجرة تنبض بالقسوة)

- إذن فلنكسر عنقه، ونخرجه.

(صوت لابشري يُعقب)

لم يمكث غلاب لحظة واحدة إضافية؛ فقد طار يسابق الريح، وتلقف الصدى نداء (سهر) الأخير، وأصر على فضحه مرارًا.

- ...نكسر عنقه.

...ـر عنقه.

...ـنقه.

...ـه.

****

لا يعرف غلاب كيف اهتدى إلى بيته، المهم أنه دخله كالبرق، وألقى نفسه على سريره.

زلزلت الرجفة المتواصلة جسده، فدثّر نفسه بكل بطاطين المنزل، واستوطن

دنيا الدفء أسفلها. لحسن الحظ أن حسين لم يستيقظ، فوجدها غلاب فرصة لتمالك أعصابه.

إن تلك الزوبعة لم تكن لشياطين. آه لو رآهم ثانية! سيقبِّل أيديهم فردًا فردًا. إنها حتمًا لأرواح أجداده، نعم؛ فهو ينتمي لقبيلة الجعافرة، التي يعود نسبها إلى آل البيت، فلعل سلفه الشريف لم يرض له الزواج من امرأة بهذا الشكل، امرأة تفتح القبور مع شقيقتها، فإذا استعصى عليهما إخراج الجثة، قالت شقيقتها لها:

ـ إنه ثقيل جدًا، لا أستطيع إخراجه من القبر؟

فترد:

ـ إذن اكسري عنقه.

من الواضح أنها من قتل برسي؟

صحيح أن المرحوم أذل ناصية غلاب، وأن غلاب تمنى لو مزق كبده، إلا أنه لم يكن مخلصًا للدرجة في تلك الأمنية، ولا يرضاها بأي حال.

الآن عرف سر المر الذي لطالما شكت منه قرينته؛ إن طعامنا العادي يمثل لها هذا المر، بينما يطيب لها -فقط- ما اعتادته من لحوم البشر، هذه الذكرى في حد ذاتها جعلت حلقه يجف.

بعد نصف ساعة سمع غلاب صرير الباب. إنها سهر، لقد عادت.. لم يجل ذلك بذهن غلاب لوهلة، لقد ظنها ستختفي من حياته بعدما عرف، ونسي -تمامًا- أنها لم تعرف أنه عرف.

ـ مساء الخير يا حبيبي.

لا تزال سهر -كدأبها- متألقة وفاتنة، وهو بالتحديد ما جعل الدماء تجف من جسده.

سألها في تثاقل:

ـ أين كنت؟

ردت سهر بتلقائية بريئة:
ـ ماذا حدث لعقلك يا أبو حسين؟! لقد كنت عند أختي نعمة، واستأذنتك قبل خروجي. بالمناسبة، (طه) قَبِل العزومة، وقادم يوم الجمعة مع نعمة.
حارب غلاب كي يظل طبيعيًا، وبذل في سبيل ذلك جهدًا خرافيًا. إنه لا يزال غير مصدق، هل هذه هي حقيقة زوجتي؟! هل هذه هي حقيقة أم ابني؟!
استدعى ذكريات لقاءاتهما الزوجية، عندما كان يشعر أن الفراش قطعة من الجنة، في هذه اللحظة شعر بالقيء، وشعر بألم مبرح في عنقه، تحديدًا من مكان عضاتها.
ترى من كان يضاجع حينها؟ أنثى؟ أم غولة؟
اتكأ غلاب على السرير منهارًا، وأزاح البطانيتين من فوقه، ثم تطلع إلى زوجته بسكون.
سهر والدلال يتقطر من كلماتها:
ـ ماذا دهاك يا رجل؟ لماذا تنظر إلى هكذا؟!
ارتبك غلاب، وبالكاد استجمع شتات أعصابه:
ـ أنا عَطِش يا سهر، ناوليني كوب ماء من الزير.
استمرت سهر بنفس موسيقى الدلال:
ـ أخاف من صوت بقبقته (صوت إدلاء الكوب في الزير).
لم يرق لغلاب ذاك الصوت الناعم، وإنما دقت في أذنه ساعة الحقيقة، ونظر إلى النجوم من طاقة المنزل الحجري، فوجدها جميعًا تحضه على الإقدام، وتشاركه لعن هذه المرأة. وهكذا اتخذ قرار.
أنهى غلاب حالة الـ (بين بين)، وأضرم النار في كل الحلول الوسط، بينما يعقب بجفاء قاس:
ـ ولماذا لم تخافي كسر عنقه؟

****

اختفت سهر من حياة غلاب، ولم تنسَ أن تصحب معها نعمة.

صار ذلك حديث القرية طويلًا، لماذا رحلت؟! وما سبب انفصال الزوجين السعيدين؟! لقد كانا مرتبطين بشدة والكل يحسدهما على سعادتهما، لعل غلاب يذوب حزنًا من الرحيل، ومتأثر بشدة من طلاقها، يا لها من نهاية مفاجئة، ووداع مفاجئ؟!!

غلاب لن ينسى هذا الوداع ما حيًا، لقد انقلب وجه سهر تمامًا، صحيح أنه رأى هذه التغيرات مرتين، إحداهما في الزوبعة، والأخرى في المقبرة، إلا أنها لم تكن بذاك القرب.

تجمد غلاب في مكانه، تطلع حوله في بطء؛ إن العصا بعيدة عن متناوله، حيث تستند إلى قدم السرير، أما الفأس فمعلق على الحائط في المقعد.

(المُقعد) هو مسماهم الدارج لغرفة الضيوف.

ندت عن غلاب حركة عصبية، فوجد سهر -أو للدقة من كانت سهر- قد انتقلت كالسهم، فصارت في مواجهته تمامًا.

لفحت أنفاسها وجهه، بعد أن كانت تدفئه سابقًا.

ـ إذن فقد عرفت!

أسند غلاب ظهره إلى الحائط وصارحها بأنه لم يعد يعرف شيئًا، لم يفهم حتى الآن: معقول أنها وسهر كائن واحد؟!

مدت يدها إلى وجنته، فكهربته لمستها:

ـ بل هذه هي الحقيقة. يا للأسف! لقد عشقتك بحق، وأنت أفسدت حياتنا بفضولك.

قفز غلاب جانبًا، إن العصا على بعد ذراع منه، دحرج نفسه على الأرض، ثم انتصب واقفًا ليتحرك في اتجاهها، راقبته السلعوة بسكون، ورقص التلذذ في عينيها.

أمسك غلاب عصاه في يده، وواجه بها الكائن:

ـ بل أيقظت نفسي من وهم زائف.
ـ جميل، ألم تلاحظ شيئًا عجيبًا فيك الآن؟
لوح غلاب بالعصا مرتجفًا، أي إدهاش سيلاقيه أكثر مما فيك أنتِ؟!
أخبرته أنه ها هو يظهر معدنه، ويقهر الجبن في الوقت المناسب، ذكرته بأنه لطالما لفتت نظره لذلك، ولم تصدق، كما أن بوسعه أن يهدأ روعه، إذ تؤكد لن تؤذيه.
ـ لم أصدقك وأنتِ سهر، فكيف آمنك وأنت سلعوة؟!
مدت سهر يدها إلى ضفائرها، وأطلقتها لتطير بصحبة ظلمة الليل:
ـ لولا أنك والد ابني، لبالفعل جعلت منك طعامي.
تراجعت سهر، وقالت دون أن تحول بصرها عن غلاب:
ـ وداعًا يا من شاطرته نفس الوسادة يومًا، حاول أن تتذكرني.
انتبه غلاب لأول مرة أن حسين استيقظ، ولذهوله فإن الفتى لم يصرخ! أسرع يحتضن ابنه ويدفن رأسه في صدره، بينما استمر حسين على جموده، مراقبًا أمه المبتعدة:
ـ أمي لا تتركيني.
ـ أنا لم أتركك يا بني، أنا أعيش بك وفيك.

رحلت السلعوة سهر، رحلت إلى الأبد، ولم تترك لغلاب سوى بعض الآثار في جسده، تحديدًا آثار قبلات على وجنته، وعضات على رقبته، وأخيرًا...... غصة من المر في حلقه.

****

الحاسة ٢:

البصر

وراء الحاسة:

عيون مُقتلعة

تمايلت أمواج النيل برقصتها الليلية اللعوب تحت أضواء النجوم.

لا يزيد عمق المياه بهذه المنطقة على المتر، تسكن بين ذراعي وادي مرتفع يحيطها من الثلاث جهات، وهو ما دعاهم لأن يصطلحوا عليها باسم (اللسان).

اتسمت حركة الأجنبي الأشقر هناك بالبطء الحذر؛ فالماء يبلغ ركبتيه، ويثقل من حركته، مما تسبب في تعثره مرتين، لينال البلل من ثيابه العلوية، فأطلق سبة، ثم أكمل غرس أقراصه المعدنية تحت طمي اللسان، وقد حمل الوجه العلوي لكل منها مصباحًا أحمر، تبدل حاله ما بين التماعة وانطفاء.

تأمله الضابط بجواره على الحافة، ثم عقب:

ـ أنصحك أن تتريث، والأهم، لا تفكر أنني قد أساعدك.

ـ وأنا يا صديقي، لم أطلب مساعدتك، ولا نصائحك.

أنهى الأول صف أقراصه في شكل دائرة كبيرة، قبل أن يسرع إلى البر، ويُخرج جهاز تحكم من حقيبته، ثم يضغط أزراره بسرعة متلاحقة، حتى تحولت الأقراص إلى ضوء أحمر مستمر.

طالع الأجنبي بتركيز عملية المسح الذي يقوم به جهازه، والتي أسفرت عن خطوط خضراء انسيابية ارتسمت على شاشته، وبالتدريج، اتصلت الخطوط لتكوِّن شكلًا شبه مألوف.

الأجنبي، كالمجنون:

ـ قلت ذلك، قلت ذلك ولم يصدقني أحد!

فغر الضابط الطويل فاه يريد أن يُسفِّه كلام مرافقه، أن يستنكره، ثم وجد أن ما يحاوله هو العبث بعينه؛ فالخطوط على الشاشة واضحة، وأفصح من أي تفسيرات.

جاهد الأجنبي لالتقاط أنفاسه المبعثرة، وأكّد أنه هنا، ذاك الكيان الخارق الذي تغنت به الحكايات التاريخية، وكانت الأعماق موطنه الذي لا يغادره أبدًا.

خمّن الأمريكي أنه سافر كثيراً بطول النيل، بدليل المشاهدات التي سُجِّلت له على امتداد الوادي. في النهاية، خارت سيطرته بمرور الزمن فيما يبدو، فطوحته الأمواج حتى هنا.

ـ ومنذ متى تعتقد أنه وصل إلى منطقتي؟

ضغط على حروف (منطقتي) بعصبية أكثر، هذا لفظ من الطبيعي أن يستخدمه مأمور المركز.

ـ ربما هو هنا، منذ بضعة مئات من السنين.

ـ ماذا؟!

ـ لاحظ أن دورة حياته أطول مما تتصور.

قرر الضابط ألا يبدي تصورًا قبل أن يشاهد بنفسه، بينما ردد داخل سريرته: "عين اليقين.. حق اليقين"

كثيراً ما يحاروا من تكراره هذه الكلمة في كل ساحة جريمة، بينما يتذكر هو أول مرة شرح له مدرس اللغة العربية الفرق بين المفردتين؛ الأولى تعني أن

تشاهد الحقيقة، أما الثانية، فهي درجة أعلى من البصر، عندما تصبح الحقيقة ملموسة بيدك.

بالطبع لم تكن الدراسة والتعليم من أولوياته، هو ابن ضابط، ومن البديهي أنه سيكبر ليحتل نفس الوظيفة، كل ما هنالك أن القاعدة أفادته كثيراً في عمله، وها هو الآن، يتجاهل عينيه، وينتظر حتى يلمس حق اليقين.

تطاير لعاب الأجنبي في وجه الضابط ثانية، بينما يصيح مكملًا:

ـ أفنيت أعوامًا طويلة حول العالم أبحث عنه، أو أحد أشقائه النادرين من ذوي الأخضر، اتهموني بالهذيان، بمن فيهم البهائم في بلدي الذين يسمون أنفسهم (بروفسورات)، الآن سيعرفون.

أخرج الضابط منديلًا يمسح وجهه، وقبل أن يعقب متأففًا، أخرسه طارئ من أغرب ما يمكن، ذاك الطارئ تعرفه القرية جيدًا، وتعتبره تجسد للشيطان..(الزوبعة)!

انتشرت السحابة الترابية حولهم، وطوّقتهم كجيش نظامي من الغبار، كان ما كان ينقصهم صوت نفير و طبول حرب حتى يكتمل المشهد!

ببطء، تجسد الغبار على المرتفعات حولهم بصورة بطيئة، وكوّن أشكالًا لها سمت الأجساد البشرية؛ في المقابل، انتزع الضابط مسدسه الأميري بردة فعل غريزية، ثم لم يلبث أن تجمد إصبعه على الزناد؛ ماذا يمكن أن يفعل الرصاص في مقابلة رجال من غبار؟!

بجواره، فقد الأجنبي شعوره بركبتيه، وتماسك بالكاد ليبقى واقفًا، ثم دار حول نفسه، وهو يهتف بجنود الغبار:

ـ من أنتم؟! من أنتم؟؟! أأنتـم تجسد لذلك الراقد بالأسفل؟؟! للـ.. كـيـان؟؟!

مجرد الاحتمال كفيل بقتله ذعراً!

فواصل الأجنبي الدوران حول نفسه، يسعى لاستشفاف أي إجابة من الوجوه الترابية، لكن محاولاته انتهت إلى سراب؛ فسرعان ما ذابت الأجساد لتتوه في الزوبعة المحيطة بهم، عدا واحدًا.

تدريجيًا، بدأ الأخير يُظهر استجابة، فأومأ برأسه نفيًا:

ـ كلا، لست منه، وإنما تعلمت على يديه.

ألحّ الوادي حولهم في ترديد صدى العبارة السابقة. فاقشعر الرجلان أمام هذه التطور الجديد؛ الأمر تجاوز مرحلة التهيؤات الآن، وصار أوضح من أن ينكراه.

الضابط بالذات وصلته أخبار الزوبعة سابقًا، ولطالما سخر من مخبريه الذين تناقلوها.

الآن، ها هي ذي الإشاعة ترفع الخمار وجهها، وتثبت -بأوضح طريقة ممكنة- أنها حقيقة.

"لا تخالوا أنني أتيتكم محاربًا، وإنما جئتُ شاهدًا ومحذرًا"

"محاولاتكم هذه ستنتهي إلى لا شيء"

"أنتم أضعف من نهل نبع القوة الذي تقفون فوقه"

"ومع ذلك، القرار في أيديكم"

"يمكنكم أن تكملوا طريقكم، فإذا خسرتم، سأحرص على أن آخذ من أجسادكم تذكارًا، حسبما تنص تقاليدنا، وإن أعد -كلاكما- باستمرار عينيه في مشاهدة النتيجة، حتى بعد مماته"

"أما بالنسبة لك يا باشا..."

دبت صحوة زائدة في جسد الطويل؛ لقد اعتاد أن ينعته الأهالي بهذا اللقب، أو حتى مرؤوسيه في القسم، تلك أول مرة يناديه بها شبح!! هذا كاف لأن يغدو اللقب الأثير أشواكًا تخز مسامعه!

لعل مَن أمامه شبح شخص يعرفه؛ خصوصًا أن اللهجة ليست غريبة عنه! به رنين يخمن أنه صعيدي قح! لكن أين سمعها من قبل؟؟ أين؟؟ أين؟؟!

استمر الصوت يتسرب إلى مسامعه بين الغبار:

"لمدة طويلة ظننتُ أنك آذيتني، وأوردتني غياهب الظلام، ثم اتضح أنني أسأتُ الظن بك، لذلك لن أؤذيك بدوري، لن أفعل لك شيء أكثر من أن أتركك لمصيرك"

انقطع الصوت. واضح أنه جاء يبلغ رسالة ثم ينصرف.

انقشع الغبار من حولهم رويدًا رويدًا، فعادت قبة السماء تتضح وتصفو، وتحت لمعة نجومها، التفت الأجنبي والضابط، إلى بعضيهما.

أفلس كلاهما في العثور على ما يمكن قوله، أو التفوه بكلمة، تفسير، أو حتى استنكار.

استرجع الضابط كل الكلام الهلامي الذي سمعه من الزوبعة عن: ندائه له بكلمة (باشا)، التحذير، التذكار الذي سيأخذه من أجسادهم، ثم مسألة غياهب الظلام التي أوردها لأحدهم؟ من بالضبط؟!

في العادة هو يُورد الكثيرين- بحكم عمله- إلى هناك، للمرة الألف يشعر أنه يعرف الصوت الذي كان يخاطبهم.

تلك اللكنة الصعيدية! ونبرة الحديث! حتما مرا بأذنيه قبلًا، يكاد يقسم على ذلك!!

أخيراً تجاوز الضابط خرسه، وهو يهرب ببصره إلى مسح الوادي حوله. لقد تراجع خطوة إلى الوراء، فحتى (عين اليقين) سُرِقت منه الآن.

ـ أتمنى لو كنت أهذي. قل إنني كنتُ أهذي!

تطايرت خصلات الشعر الأشقر للأجنبي، بينما هو غارق في الصمت، وأخيراً انفرجت شفتاه عن كلمته المتأنية:

ـ بل حقيقي ١٠٠%.

نطقها بهدوء مثير، فعاد الضابط للنظر إلى عيني رفيقه، يحاول إماطة اللثام عن سر هدوءه:

ـ والتفسير واضح جدًا يا سير، وقلته منذ الوهلة الأولى.

وأشارت إصبع الأجنبي إلى الماء:

ـ إنه ذاك الكائن بالأسفل. من الواضح أن قوته لم تخبُ تمامًا، فأراد أن يعابثنا كما رأيت، ويختبر إرادتنا.

ـ كيف أشعر إذن أن الصوت مألوف، وأنني التقيت أحدهم بتلك النبرة قبلًا!

ـ الكيان الذي نحن بصدده، هوايته المفضلة هي الخدع النفسية، وقادر على أن يزيف داخلك مثل هذه الانطباعات.

ـ إذن؟

وجه الأجنبي ناظريه إلى المياه المتلألئة تحت ضياء النجوم:

ـ إذن، لن نكترث لهذه الألاعيب الخائبة، سنكمل ما جئنا لأجله، وسنرى من سيأخذ تذكارًا من جسد من؟!

****

منحهم الكثير، مما جعلهم يعبدونه في الماضي.

أما عندما تغير الزمن في الحاضر، كفوا عن تسميته (نيل)، ووجدوا أن أقل تفخيم متاح، هو أن يطلقوا عليه (البحر).

كان من النيل أنه منح (كرار)، ضمن ما منح، مفاجأة لطيفة.

ظهور فندق نهري يمخر العباب حوله!

مشكلة هذه الفنادق أنها تجلب حولها موجة قوية، سيضطرب لها (السّمبك) (المركب الصغير في لغتهم المحلية).

وهكذا لملم كرار شباكه بجذبات متعجلة، وألقاها في جوف المركب. ثم جلس يجدف بكل قوته صوب أبعد مدى ممكن، المشكلة الأخرى أن الهاتف ارتفع في تلك اللحظة، بالصوت الصداح للعطواني(•):

يا نفس لا تقنطي مـ...

ثم انقطعت النغمة.

تصامَّ كرار عن البصقة المبتورة هذه؛ غالبًا هو أحدهم طلبه بالخطأ. صب الصياد تركيزه على الإبحار بشكل أسرع، خصوصًا مع ظهور المشكلة الثالثة؛ أن التيار جرف السِمبك نحو اللسان، الذي شرع -بدوره- يجذبه كالمغناطيس.

استرجع كرار ما يرْوُونه عن تلك المنطقة، فاشتعل وقود جنونه، واستنزف جهدًا مضنيًا حتى سيطر على السّمبك أخيرًا، و أوقفه قبيل اللسان بعشرات الأمتار.

لهث وهو يجفف عرقه العزيز، من يصدق أنه نجا!!

استدار إلى الخلف، وشاهد الفندق يشق المياه المتلألئة، بينما السياح مستلقون على سطحه، يسلمون أجسادهم لأشعة الشمس. للأسف الشديد، المسافة أبعد من أن يظفر بنظرة إلى إحداهن بثوب البحر هناك!

• الشيخ عبد العظيم العطواني: منشد ديني شهير ينتسب إلى قرية (العطواني)، مركز ادفو، محافظة أسوان.

اشتهر بإنشاده البديع لقصيدة (البردة).

أما عن مؤلف القصيدة فهو (محمد بن سعيد البوصيري)، كتبها في القرن السابع الهجري؛ وقد أجمع معظم الباحثين على أن هذه القصيدة من أفضل وأعجب قصائد المديح النبوي.

تتمة البيت السابق:

يا نفس لا تقنطي من زلةِ عظمـــــت ** إن الكبائر في الغفران كاللمــــــــم

ـ ما علينا يا بحر.
رمى كرار بشبكته من جديد، ليسرح مع النيل، وتموجاته، ولونه الصافي، وكُراته.
كراته؟! ماذا يكون هذا بحق الله؟!
تصلب كرار أمام مرئى كرات صغيرة تتأرجح على سطح المياه بتؤدة، منظرها غير طبيعي بالمرة، حيث يُقارب حجمها عقلة الأصبع، بيضاء اللون، يرتسم على سطحها دائرة سوداء أصغر، تلك الثانية زرقاء ربما.
مال كرار بجذعه خارج المركب، واقترب منها ببصره، ثم بأنامله.
وفجأة أدرك كنهها، فارتدت أصابعه بحركة حادة، وتقلصت معدته وأفرغ ما بها في النيل جواره.
إنها عيون مقتلعة! عيون بشرية! والأفدح أن هناك شيئًا أشبه بالعروق يخرج من ظهر العين، لو أن كرار يملك معلومات تشريحية، لتبين لفوره أن ذاك هو العصب البصري، إن من انتزع العين حرص على اقتلاعها بملحقاتها.
"دعها!"
رن الصوت كالصدى في خاطر الصياد، فشك إذا ما كان سمعه أم لا!!
وكأن هذا ما كان ينقصك يا كرار!!
"لقد وعدتهم، إذا هزمتُهم وأخذتُ أرواحهم، فسأجعلهم يرون خاتمتهم بأعينهم حتى بعد موتهم"
"دعها يا كرار؛ فنحن قوم يعرف عنا الوفاء بوعودنا"
انقطع تردد الصدى داخل جمجمة الصياد، فانتقل في صورة قشعريرة كهربية في كل أوصاله. اعتدل كرار بجذعه، وقرر أن هذا القدر من الرعب كاف لليوم، فألقى الشبكة جانبًا، ليقبض على مجدافيه، ويفر على جناح السرعة.

****

أسوان..
حيث شريط طويل من القرى المتراصة، تحتضنه الجبال من الناحيتين، ثم عدة مقصات تقطعه طوليًا، أولها مقص الطريق الأسفلتي الذي يشطر كل قرية إلى نجع شرقي وآخر غربي، ثم خط السكك الحديدية الذي يفصل النجعين أسفله عن الحقول الخضراء أعلاه، وأخيراً (الشريان الأزرق) الذي يشق -بدوره- قلب الحقول.
كل قرية تقريبًا لابد لأطرافها من مدافن يتوسطها مقام ولي، أما قرية السبائك، فبالإضافة إلى ذلك، محظوظة بمركزها الذي يحوي (ساحة) يسكنها من يعتبرونه وليًا حيّا.
تقع (الساحة) في الظهير الملاصق لمنزل مولانا، وفيها يتم كل شيء؛ يجتمع هو وأهل الطريقة في حلقات الذكر، أو يتباحثون في شؤون القرية الكبرى، أو يستقبلوا الضيوف.
يختصر عمرو أهمية المكان بقولته المداعبة:
ـ منزلة الساحة بالنسبة للقرية، توازي (دار الندوة) بالنسبة لقريش قديمًا.
ارتبط المكان في ذهن عمرو بذكريات عديدة؛ فهنا حفظ القرآن في طفولته، كما لعب فيها كرة القدم مع أقرانه، علاوة على... ذكرى أخرى فارقة، يحاول تناسيها.
أما الآن في شبابه، يجتمع بها مع رفقته، حينما يزورونه.
عمرو، أحمد.
هذان هما طرفا اللقاء الحالي، اتكأا على الوسائد في قعدة عرب كما اقترح عمرو، يقبضون بأناملهم على أكواب الشاي، التي تلفظ نفثاتها وأبخرتها الساخنة. أما منذر وثابت، فقد اعتذر الأول عن لقاء القمة لسبب طارئ، أما الثاني فقال إنه سينضم إليهم في أواخره لو استطاع.

رثى أحمد لحال القرية الأخير، محسن الذي كانوا يُنزلون الزينة -للتو- عقب حفل زفافه، تركهم ورحل، وها هي أخته لحقت به في يوم أربعينه، قيل عن السبب: نزف دماغي أو شيء من هذا القبيل، وجدتها أمها المكلومة راقدة أرضًا، وقد نزفت كامل دمائها من أنفها حتى الموت، علها لم تحتمل فراق شقيقها الذي... الذي...

أُستهلكت قدرة أحمد على المتابعة، فزفر بدلًا منها (آه) طويلة أخرى.

أيده عمرو، ثم استرسل يكمل بقية جدول المناسبات القاتمة المليء: اللسان المقيت، والزوابع، ثم مؤخراً انقلاب الدنيا على اختفاء ضابط المركز وخواجة أجنبي، ثم إيجاد اللنش الذي كانا يستقلانه فارغًا هناك، عند اللسان كذلك، للمصادفة، أغلب القصص تولد وتموت في أحضان تلك البقعة، حتى الزوابع يُقال أنها تهب منه، مما جعل رغبة قارصة تنتاب عمرو بأن يتهور ذات مرة، ويزوره.

داعب ابن مولانا بيمناه كم جلبابه الأيسر، بينما يستدرك بركيزة هامة من حكايات اللسان، ألا وهي مفاجأة العيون المقتلعة، مجرد ذكر الأمر يدفع إلى التقيؤ، كرار المقرف ادعى وجودها هو وآخرون، وأقسم لهم على المقهى أنه رآها عائمة على وجه المياه. ختم عمرو بتعجبه؛ أن عمنا نجيب محفوظ يؤكد أن: (آفة حارتنا، النسيان)، فلماذا تشذ قريتنا عن هذه القاعدة؟! لماذا نأبى هنا نسيان الخوف؟؟!

ـ ليس كرار وحده من رأى العيون؛ سمعت نفس الكلام من ممدوح وأبو ضاهر.

وافقه عمرو بأن هذا الموضوع بالتحديد شغله كثيراً، وهو ما يود أن يتحدث فيه بالأساس كما أخبره في المكالمة الأخيرة، فطلب من صديقه أن يستعد للقصة المنسية التي سيحكيها، ويحاول أن يصدقها.

ـ في البداية شغلتني أسئلة، عمن يمكن أن يقتلع عينًا بشرية، ويلقيها في المياه، ثم يسمع العابرون صوتًا خفيًا، يقول أنها تُركت لتشاهد عاقبة ما اقترفته. بحثتُ كثيراً بين الكتب، وعبر النت، وأخيراً -لك أن تتخيل- لقد وجدت رابطًا بين ذاك الموضوع، وبين مسألة الزوبعة؛ رابط جذوره تمتد إلى قصة تاريخية قديمة، عمرها آلاف السنين، حيث فئة وحيدة انتهجت ذاك الأسلوب.

ـ آلاف السنين؟؟!

ـ نعم، هؤلاء هم أصل الـ (جرو) أو (الصامتون).

مرر عمرو أصابعه في حركة ميلودرامية يُوصد بها شفتيه، كترجمة حركية إضافية لآخر كلماته.

ـ ثم.. يا ابن مولانا؟

عمرو.. بغضب:

ـ ابن مولانا؟!

ـ أعلم أن الكلمة تضايقك، لكن انظر لنفسك في المقابل، أتتحدث عن صامتون، أم كلاب صغيرة؟! عمرو، أعلم عشقك لأن تمثل مسرح، كل أمنيتي أن تتخطاه مؤقتًا، وتتحدث مباشرة.

ـ أوه.. المسرح! لماذا تفقأ الدُمَل وتذكرني؟؟!"

ـ (دمل)؟؟ و(تفقأ)؟؟ وليكن، تكلم أرجوك.

ـ أخفض صوتك، سيظنوننا نتشاجر. سأتكلم.. مبدئيًا، أنت مغفل؛ لا أقصد كلابًا من أي نوع، ألا تجيد الهيروغليفية!؟ (جرو) مرادف الصامتون في لغة المصريين القدماء، يفترض أن تلاحظ هذا بالبديهة، فنحن توارثنا اللفظة طوال كل هذه السنين؛ فلو تأخذ بالك، عندما نزجر كلبًا كي يتوقف عن النباح، نهتف به...

ـ (بحذر) جررر؟

ـ بالضبط، والواو التي أضفتها هي للجمع تبعًا للغة المصرية القديمة، (جرو) هو الاسم الذي عُرِفوا به في البرديات وعلى جدران المقابر. هم فئة استثنائية، أشيع امتلاكهم قدرات ذهنية فوق العادة. نصَّت قوانينهم عبر التاريخ على العزلة، وهو السبب أن ما وصلنا عنهم - دائمًا- ليس سوى أقل القليل. قيل أنهم قادرون على التحكم في الرياح، فيتحركون أحيانًا متخفين داخل... زوبعة.

ـ صديقي عمرو، أنت لم تختلق هذه الحكاية، أليس كذلك؟؟ أتريد القول إن من يجولون بقريتنا، أشباح رجال يعيشون منذ آلاف السنين؟!

ـ من قال (أشباح)؟! لساني لم يتلفظ بالكلمة، أوف يا أحمد! كنت أعلم أنك بطء الفهم وستتعبني. تعالَ إلى غرفتي في المنزل؛ فهناك حاسبي بكل ما جمعته عليه من معلومات ورسوم.

ما هي إلا ١٠ دقائق، حتى استقر أحمد وعمرو على كرسيين، ينعكس على وجهيهما وهج الشاشة.

جالا على الشاشة بين مراجع بصيغة الـPDF ما بين عربية وأجنبية، بالإضافة إلى مقالات من مواقع إلكترونية، مع صور فوتوجرافية لبرديات ومعابد. الخلاصة، أن كل المعلومات اصطبغت بلغة علمية، فعجز أحمد تمامًا أن يجد مجالًا للإنكار.

ـ لا زلتُ -حتى الآن- أعجز عن التصور؛ أهناك من بإمكانه البقاء صامتًا ولو ليوم واحد كامل؟

أكد مضيفه أنهم ليسوا الوحيدين، حتى على المستوى الديني؛ مذكور في القرآن الكريم أن العذراء (مريم) تقربت إلى الله بصيام الصمت، على الجانب الآخر، أقدم الرهبان الصينيين والهنود على نفس الممارسة، بل وبعيدًا عن الطقوس الروحية، معروف أن العالم (فيثاغورث) أدرجها ضمن اختبارات الانضمام لمدرسته الشهيرة بـ(كروتوني) بجنوب إيطاليا؛ حيث ألزم

التلاميذ بمرحلة تدريب قاسية تتطلب الصمت لمدة تتراوح من سنتين إلى خمس.

بخل عمرو على صديقه ولو باستراحة قصيرة للاستيعاب؛ فتناول الفأرة مرة أخرى، ثم ولج إلى خبر بجريدة خاصة شهيرة، تاريخ الخبر حديث نسبيًا:

ـ أترى هذا المقال يا أحمد؟ إنه قبلة الحياة التي ستجعلنا نعرف أكثر عنهم.

سارعت عينا أحمد تعودان إلى الشاشة، ليقرأ بنفسه، فيقي نفسه شر حذلقة عمرو، على الجانب الآخر، لم يحتمل المضيف أن يحرم رفيقه من الشرح العبقري، فلاحقه باستفاضة:

ـ المشاهد مأخوذة من موقع أثري بسوهاج، أزيح خمار التنقيب عنه حديثًا، إذا أردت الموقع بدقة، فهو في مدينة (الكوثر) على أطراف عاصمة المحافظة. حفلت جدران المعبد بذكر لفظة وبصمة الـ(جِيرو) و.،. للأسف ضن عليّ المقال بما هو الأكثر، فلجأت إلى زميل عزيز من سوهاج، درس معي في السنة الأولى، ثم أكرمه الله بتقدير (جيد)، فنقل إلى جامعة محافظته مطلع العام الجاري

تحرّى زميلي الاكتشاف، ثم أرسل لي هذه الصور والتفاصيل. كم هي مفيدة -بحق- المعارف والصلات! الاكتشاف حمل أكثر من قنبلة مدوية، أهمها هذه الصور.

أشار عمرو إلى ثلاثة أو أربعة صور، وطلب من أحمد أن يخبره بما يلاحظه.

- ممم، هذه صور من زوايا مختلفة لجدار معبد، الصور تستهدف هذا النقش تحديدًا، وكأن له أهمية ما.

- انظر جيدًا، ألا تلاحظ ما هو غريب؟! دقق في هيئة النقش الذي تقول عليه.

قلّب أحمد بصره في تفاصيل المنظر دون جدوى:

ـ ماذا دهاك يا عمرو؟! منذ بداية الجلسة، وأنت تكرر نفس الخطأ، وتتعامل معي كأنني خريج مدارس لغات، قسم هيروغليـ...
ماتت الكلمات على شفتي أحمد فجأة؛ فقد انتبه أنه ليس نقشًا؛ إنه شكل بارز، يشبه بيضة عصفور به نقطة ملونة في المنتصف، أو...
ـ رحماك يا ربي، إنها... إنها عين حقيقية!
ـ بالضبط.
تذكر أحمد وقت سماعه من أبو ضاهر عن العيون التي رآها، وجده يرتجف بينما يحكي، فاستهتر أحمد باهتزازه لمجرد مشاهدة مشكوك في صحتها، الآن فقط، التمس العذر.
سأل ابن مولانا عن: "كيف؟ ولماذا؟ أهي كانت عادة منسية عند الفراعنة؟! ثم ما علاقتها بالصامتين أولئك؟!"
أجاب عمرو بأن (الجيرو) فئة مسالمة تؤثر العزلة كما سبق وأن شرح، كما يمتلكون قدرات أكبر من أي تخيل، وفي نفس الوقت يرفضون استخدامها بين الناس؛ إذ يتحاشون -بشدة- الإخلال بتوازن القوى في الطبيعة، فإذا ظهر خطر يحتم تدخلهم، تعتمد فلسفتهم ألا يطفئون النار، بل يجعلونها تأكل نفسها بنفسها.لا أحد يعرف كيف؛ الأمثلة التاريخية تعامت عن هذه النقطة، ما يعلمونه -فقط- أنه بعد هزيمة الخصوم، يقتطعون من أجسادهم تذكارًا.
ـ تقصد العين؟؟!
ـ نعم، المغزى من ذلك الطقس، أن تستمر عين العدو في رؤية العاقبة، حتى بعد موته، ألا تذكرك هذه العبارة بشيء ما؟؟
لم يحتج أحمد أن يجهد ذاكرته كثيرًا؛ فهذه العبارة التي قال أبو ضاهر أنه سمعها نصًا.

ـ أعرفت الآن لماذا لم أندهش مما حكيته لي يوم زفاف المرحوم محسن!؟ أنت خفت من ماء اللسان الذي فار وارتفع كأنه دوامة، فكان لزامًا عليّ أن أطلعك بما عرفت؛ لتفهم أن دوامة الخوف أعتى مما رأيتها بكثير، إنك....

قطع حديث عمرو صوت طرقات على الباب، ثم صوت زوجة والده:

ـ ادخل يا منذر، أيعقل أن تخجل!؟ هذا بيتك.. عمرو بالداخل، ومعه أحمد أيضًا.

ثوان.. ثم دقات على باب الغرفة، مما جعل عمرو يبادر بصوت عالٍ:

ـ من أين هبط عليك التهذيب فجأة فتطرق أولًا!؟ هيا ادخل.

دخل منذر بوجه جامد، فعاجله أحمد:

ـ تعال سريعًا، فقد فاتك الكثير، مما كنا نتحدث فيه أنا وعمرو.

في اللحظة نفسها، اتجه عمرو إلى الباب، بينما يقول:

ـ ثانية واحدة أولًا، أطلب له شايًا.

استوقفه منذر بجذبة ذراع:

ـ مهلًا، لن أسمع أو أشرب، بل أنتم من سيخرج معي في مشوار صغير.

توجس أحمد:

ـ ماذا وراءك يا نذير الشؤم!؟ أظنها مصيبة كالعادة.

منذر:

ـ عزاء.

كرر رفيقاه بصوت واحد:

ـ عزاء من؟!

ـ حسين ابن غلاب.

****

سار الرفاق الثلاثة، تسبقهم ظلالهم الطويلة، التي حاكها مغيب الشمس.

دس عمرو كفه اليمنى في كمه الأيسر والعكس، بينما يرثي:

ـ مسكين ذاك الرجل، قدره أن يكون شجرة تتساقط أوراقها، في البداية انفصل عن زوجته، والآن فقد ابنه.

أحمد، يتساءل:

ـ لكن متى حدثت الواقعة يا منذر؟ آخر ما أعلمه أن عم غلاب سافر إلى السودان، واصطحبه معه.

منذر، يجيب:

ـ ما سمعته أنه توفي خلال العودة، كان يلهو قرب أحد الآبار، فسقط فيه، وغرق.

وصلوا إلى الشارع الذي تقع في نهايته الخيمة، بالطبع ليست خيمة من قماش، وإنما تطلق اللفظة على دار المناسبات؛ فناء كبير مغلق بجدران، طوبه من أحجار الجبل، وسقفه من جريد النخيل، ويكتسي كلاهما في النهاية بطبقة من طين الأرض الطيبة التي أنجبتهم. كل قبيلة في البلدة تمتلك خيمة خاصة بها، تستقبل فيها العزاء، جلسات الصلح، وما شابه.

دخل الفرسان الثلاثة، فاتجهوا إلى غلاب وشقيقه مباشرة، وصافحوهما بما أسعفتهم قريحتهم من عبارات العزاء، ثم جلسا على إحدى الدِكّك (جمع دِكّة) المتناثرة في الباحة.

ـ كيف حدثت هذه النائبة يا أخي غلاب؟!

جاءت العبارة على لسان ركابي، فترقرقت الدموع في عيني الأب المكلوم:

ـ غفلت عنه بينما يلعب جوار البئر، وحدث كل شيء في لمح البصر، و.... رحمه الله.

قطع عبارته، فكلمة (لمح البصر) في حد ذاتها، استدعت ومضات من الماضي أمام ناظريه.

سكت غلاب، فنزلت على كتفه ربتات القوم حوله، تدعوه للتصبر، هذا خفف نوعًا من لهيب ألمه على ابنه، ومن... اضطراره للكذب!
فما حكاه يجافي الحقيقة تمامًا؛ إن القصة تبدأ من فترة سابقة لسفره مع ابنه، أول فصولها وُلِد مع حوار قصير بينه وبين الفتى.
ـ حسين، كيف تتأخر إلى هذه الساعة؟! ألم أنهك عن اللعب لما بعد المغيب؟
ـ حاضر يا أبي، أعدك ألا أكررها.
ـ ولد مطيع. هيا اغسل يديك، ريثما أضع طعام العشاء.
ـ لقد أكلت في الخارج يا أبي.
ـ ؟!
ـ ولم أنس نصيبك معي.
أخرج الطفل كيسًا بلاستكيًا مبللًا، فاقترب الأب المتعجب من الكيس والبلل، هنا انتحرت كل تساؤلاته؛ فالحقيقة تكشفت سافرة واضحة الآن؛ البلل ليس سوى دماء، وما بالكيس ليس سوى لحم ذراع مقطع، ذراع من جثة طفل صغير.
ترنح الأب من سكرة المفاجأة.
"جثة الرضيع الذي فقدتْه عائلة حسان، ودُفن بالأمس"
لمعت العبارة في عقل غلاب، مما ضاعف ترنحه، فظهر وكأنما يرقص على نغم شذرات من ذكرياته، ذكرى حسين منذ شهر، عندما جاءه بظفرين من يد ابن (محمد بن أبو برسي)، ثم آخر وداع بين سهر وابنها:
ـ أمي لا تتركيني.
ـ أنا لم أتركك يا بني، أنا أعيش بك وفيك.
الواضح أنها كانت صادقة لأبعد الحدود؛ لقد ورَّثت ابنها مرض الوحشية!
غدًا يكبر الولد أكثر، فيبدأ الشكوى من الحمى وطعم المر، ثم يُقبل على اللحم البشري بشكل أكثر انتظامًا.

ضرب غلاب الكيس من يد ابنه بحركة لاإرادية، فسقط أرضًا ليتبعثر محتواه البشع، ثم ضم ابنه إليه، وقد سمعه يتساءل باستغراب بريء:
ـ أبي، لماذا تهدر النعمة؟؟!
خيل إلى غلاب أن حرارة أسوان كلها تجمعت، وصُبّت على جسده، فاستمر يحتضن ابنه بيد، في حين رفع الأخرى يمسح نهر العرق الذي تصبب من جبينه.
عمومًا مسألة الحر ليسَا شرًا خالصًا، أقله يخلص المرء من خصال سيئة عديدة؛ كالتردد، الانتظار، من ذا الذي يملك طاقة لأن يتردد أو ينتظر، والحرارة حوله تبلغ ٤٥ درجة في الظل؟!!
تحرك غلاب بلا إبطاء، فارتدى ثيابه، ثم مال على الابن ليصير الوجه في الوجه:
ـ حسين، طلبت مني مرارًا أن أصحبك في قافلة، وأن تركب الجمل خلفي حتى السودان، نعم، أعلم أنني كنت أرفض، وأقول أنك لازلت صغيراً، أما الآن، فقد اختلف الأمر، سنرتحل معًا، سنذهب حالًا.
تقافز الولد من الفرح، ثم عاد يسكن حضن أبيه بقوة:
ـ كم أنت رائع يا أبي!! سترى كم أنت محق! وأنني رجل يمكنك الاعتماد عليه، لكن... لماذا تبكي يا أبي؟! أأرى عيناك تدمعان يا أبي؟! أم يُهيأ لي؟!
سافر غلاب بصحبة اثنين؛ ابنه ودموعه.
لحظة توقفه في منتصف الرحلة، تدفق السائل الحار مدرارًا من عيني الأب؛ فقد وصل بولده إلى موقع بئر يعرفه جيدًا.
غامت الرؤية أمام غلاب، فتحولت الحافة الدائرية إلى مشهد مشوش يقترب تدريجيًا، جرب أن يغمض جفنيه بقوة؛ ليطردا ما أغرقهما من دموع، ثم استحسن الأمر، فجرب أن يكمل المشي مع إبقائهما مغلقتين. لماذا يصر على الإبصار؟! ألكي يطارده ما سيراه لبقية حياته؟!

سار عدة خطوات، ثم فشل إحساسه بالمسافة أن يغنيه أكثر عن استخدام البصر، ففتح عينيه ثانية على هدفه:

ـ أترى ذلك البئر هناك يا حسين؟ أعلم أنك لم ترَ بئرًا من قبل.. هيا بنا نشاهده عن قرب. انتظر لحظة، سأرفعك الآن على حافته، والآن، افعل مثلي، انظر جيدًا إلى صورتنا المنعكسة على سطحه، كم أنت وضيء وجميل! مثلها بالضبط. أكاد أوقن أنك ابنها هي فقط؛ فأعجز عن تصور أنك تمت لي بصلة.

اهتزت صورتهما المتموجة على صفحة مياه البئر؛ حيث تساقطت دموع غلاب لتصنع تموجات صغيرة على سطحها.

ـ ما سأفعله ليس سهلًا عليّ، بل أعتبره أفدح ما أقدم عليه في حياتي كلها، لكن على الجانب الآخر، لو تركتك سيصير الثمن أكثر فداحة بكثير؛ بعض الأمراض -يا ولدي- لا علاج لها، سوى البتر.. لقد أحببتك بحق يا حسين، لن تتخيل -أبدًا- كم أحببتك.

في اللحظة التالية، تناثرت المياه بقوة، إثر الجسم الثقيل الذي ألقي فيها. جدَّف حسين بذراعيه ذعرًا عندما وجد نفسه - فجأة- يتطوح في الهواء، ثم يصطدم بالمياه الباردة بعنف.

صرخ بعشرات الصيحات المذهولة، ثم الاستغاثات، وأخيرًا الشتائم.

بمرور الوقت بدأت مقاومة الفتى تخبو، فأخذ رأسه يغطس ويطفو بسرعة أكبر، دقيقتان أخرتان، وهمد جسده تمامًا.

****

الحاسة ١:

السمع

وراء الحاسة/ صوت أول:

صوت طريقة مولانا

وعى عمرو على الدنيا فوجدهم يجلّون أباه بشكل فوق الطبيعي؛ إذ تلاحقه ألقاب تعسر عليه فهمها، مثل: (القطب)، و(الشريف)، و(مولانا)، كل ذلك في الوقت ذاته، بينما العمة (فوزية) يقال لها (عمة) فحسب، وعم (شعبان البقال) هو (البقال) فحسب.

ما إن يمشي مولانا في الشارع، يهرع الجميع لتقبيل يده، فوصل إلى ذهن الطفل أنها طريقة عامة في التحية. جرّب أن يقبّل يد جارته الصبية (سارة)، ثم عم (شعبان)، يذكر الموقفين جيدًا؛ سارة تقبلت الأمر بدلال طفولي، أما الموقف الثاني فصدم عمرو.

يومها انتفض البقال البسيط، وكاد أن يبكي بين كلماته:

ـ العفو يا سيدنا وابن سيدنا، أرجوك لا تفعلها ثانية، نحن من نأخذ منك البركة!

هذا فجّر مشاكل أخرى لدى الصبي، ما هي البركة؟ ولماذا تحتكرها عائلتهم فقط؟ تسلقت الأسئلة سطح عقله، لتشغلها بالكامل.

توجه عمرو إلى أبيه، وصحب معه خواطره وحيرته، فشده مولانا من جلبابه:

"ماذا؟! قبّلت يد شعبان؟!"
بالكاد كظم الأب غضبه، واعتصرت يمناه المسبحة بالغة الطول بها، بينما شد ابنه باليد الأخرى إلى الصالة، ثم أشار إلى صور عديدة تتصدر الجدران:
ـ أتعرف ما هذه؟
ـ نعم، صور كثيرة.
تحامل الأب على نفسه:
ـ نعم، أقصد أتعرف من في الصور؟
ـ هذه صورتك، وهذا جدي (منصور) الأكبر، وهذا جدي (حسن)، وهذا عمي الأكبر (جميل).
داعب الأب لحيته بصبر، وصحح:
ـ اسمه (جمال). هؤلاء هم أجدادك، هؤلاء هم السادة مشايخ الطريقة، لقد انتقلت إليّ منهم الطريقة، فورثت منهم البركة والنور، وهذا الميراث سينتقل إليك بالتالي، لذلك أنت -ببساطة- مختلف، أنت مولانا.
صمت الطفل؛ إذ لا يزال يكافح لكي يستوعب، بينما الأب يبتعد وهو يستغفر على مسبحته.
مرت أعوام جعلت البرعم يتفتح، لقد نما الطفل عمرو فصار فتى، وغدت أعماقه طقسًا متقلبًا، وارد أن تزورها الفصول الأربعة في يوم واحد.
توجه البركان العاطفي لعمرو -تلقائيًا- نحو أقرب متنفس، وكالعادة يصطلح على ذاك المتنفس باسم (ابنة الجيران)؛ لقد أحب الفتى أن يحلم ليلًا بسارة، أحب الحديث إليها، مشاركتها حلواه، مبادلتها لعبه، وبينما يلعبان الغُميضة، داعب خصلة شعرها، ثم ابتعد فجأة إلى الركن شبه المظلم من الساحة.
"أنا هنا يا سارة، لتصلي إلى مكاني لو استطعت"

خمنت سارة من صوته أنه جنح إلى هناك، بينما راقب الفتى محاولاتها بنظرة عابثة؛ وجهها يضيء الليالي فيحيلها نهارًا، لا تزال سارة تدور على نفسها، تهفو كراقص تنورة، تضرب بيدها في مرح هنا وهناك، علّ أناملها تدرك رفيقها المشاكس، وبالفعل أدركته! اتضح أنها أدركته أكثر من اللازم، فقد وجدت نفسها بين ذراعيه الصغيرتين، واستشعرت أنفاسه في وجهها! رفعت سارة الشريط عن عينيها مشدوهة، وبعد دقيقة جرت الطفلة باكية، في حين أفاق عمرو على الكارثة.

إن سارة ستخبر الجميع، فبم سيبرر هذه الكارثة؟ ماذا سيقول؟ وبأي وجه سينظر إلى أهله؟! والسؤال الأهم: ماذا سيفعل به مولانا؟؟

مادت الأرض بالصبي، فلم تعد قدماه تقويان على حمله، استغرق ثوان ليستجمع أنفاسه، ونهض من جديد، فاتّجه بسرعة البرق إلى غرفته.

أغلق عمرو بابه على نفسه، ونفس الشيء بالنسبة للنافذة، ثم جلس بجوارها يسترق السمع، فبيته في مقابلة بيت (سارة)، يصله -الآن- من موقعه نهنهتها الباكية، بالإضافة إلى وصفها لما حدث، ثم... صوت الصفعة.

لم يفهم الصبي؛ هناك شيء غير منطقي، أو لعل الصوت وصله خطأ، هل يمكن للأذن أن تكذب أو تخطئ؟!

أنصت بتركيز، وصُدِم أن ما سمعه صحيح؛ فقد صرخت (سارة) ألمًا، وتحولت نهنهتها إلى بركان من الصراخ؛ لقد تلقت المسكينة صفعة، لا يفهم كيف؟ ولا لماذا؟ إلا أن هذا ما حدث، ثم علا صوت والدها في حزم:

ـ كفاكِ كذبًا يا بنت، ابن مولانا لا يمكن أن يفعل ذلك.

انفطر قلب الصبي لألف قطعة؛ إنه لم يعرف في الصغر معنى (القطب)، (الشريف)، (مولانا).

الآن فهم بالطريقة الأصعب، وبغض نفسه قبل أن يبغض هذه المفردات؛ كيف يكون مصدرًا للنور والبركة؟! كيف وقد خذله إنصافه؟! وارتضى ضميره ارتداء ثوب الحداد؟!

بعد طول تفكير، اتخذ الفتى قراره، سيتدثر بعباءة الشجاعة، ويعترف، لكن..

"هل يصارح مولانا مباشرة؟"

"كلا، لن تكون شجاعة حينئذ، بل انتحار"

"هل يخبر أمه إذن؟"

"كلا، ستكون مواجهة قاسية، ولن يضمن ردة فعلها. للأسف -أيضًا- لا يوجد أحد من أصدقائه المقربين في متناوله الآن، حتى يأخذ رأيه، لا ثابت ولا منذر ولا أحمد"

"إذن ليخبر زوجة أبيه؛ إنها طيبة للغاية؛ ستعرف كيف تبلغ الأخرين، وفي نفس الوقت تخفف من وطأة اعترافه قدر الإمكان"

نفض الفتى تردده، و.....

ـ لن أحتمل أن أكذب، فأدخل النار. إن سارة مظلومة، وأنا فعلًا ق بّ ل ت ه ا عند لعبنا في الساحة، ثم حاولت أن...

تبعثرت الكلمة الأخطر من اعترافه، فلم يستطع نطقها كاملة.

لم يعرف كيف قالها، ولا بأي وجه؟

كل ما شعر به هو يد توضع على كتفه، ارتجف قلب الصبي فرقًا، إنه يعرف هذه اللمسة، إنه..... مولانا!

توقع ذلك قبل حتى أن يلتفت، أما ما لم يتوقعه، هو السمت العادي الذي وجد والده عليه.

ـ يا لك من شريف بحق! تريد أن تنقذ صديقتك بأي ثمن، حتى لو ادعيت على نفسك.

أجفل الصبي؛ إذ لم يستوعب مباشرةً ما يقوله مولانا.

ـ أبتِ، أنا أقول الحقيقة ولا شيء غيرها.. لقد بدر مني ذاك الإثم فعلًا.
هز مولانا رأسه نفيًا:
ـ أقدر نبل شيمك، ومهما قلت لن أصدقك؛ مولانا الصغير لا يفعل ذلك.
لم يضف الأب كلمة أخرى، فلملم عباءته الطويلة، واتّجه إلى غرفته.
ـ انتظر يا حاج، إنني........
لكن الأب لم ينتظر، ولحقت به زوجته.
ظل الطفل ينادي، يصرخ، وفي النهاية، لم يَسمع سوى صوت... طريقة مولانا.

****

خرجت سارة لا تلوي على شيء، بينما تلوّن خدها بعلامات حمراء، اتخذت شكل أصابع.
عقلها الطفل لم يستوعب الكثير مما حدث، ارتبك داخلها انعكاس المراد من كلمتي (الصواب) و(الخطأ)، فتحاول ضبط وإحضار حقيقتهما.
إنها تحب (عمرو)، تحبه عندما قبّل يدها، عندما شاركها لعب (السيجا)، عندما رفض أن يلهو بالدمية، واحمر وجهه بألوان الغضب معترضًا أنها "لعبة أنثوية".
تخمن سارة أن عمرو يُكنّ لها المثل أيضًا، كل ما هنالك أنه أراد تقليد أفلام الكبار، تَذْكر سارة ذاك الفيلم الذي رأته منذ أسبوع، قبل أن تزعق فيها ابنة عمها، وتتهمها بأنها تتابع أشياء بها (قلة أدب)، ثم تأمرها بالذهاب لغرفتها، مع أن الصغيرة لم تختر القناة، بل وجدتها دائرة.
عجزت سارة أن تعثر على منطق للفهم، أو حتى أن تعرف إلى أين تذهب.
تحسست مكان الصفعة، لا تزال حارة جدًا، فخطرت لها فكرة أن تذهب إلى النيل.

عبرت شريط السكك الحديدية، ثم سارت تلتمس طريقها بين الحقول.
كانت كرة الشمس المحتضرة قد خسرت المعركة، فتلملم بقايا ضيائها النازف ثم تنسحب في صمت، بينما الرجال يمتطون ركوباتهم عائدين من (تحت).
(تحت) هو الاسم الذي يطلقونه على الحقول؛ حيث أن جميع الأرض الزراعية تقع غرب القرية، بينما المنازل إلى الشرق، ربما ترجع التسمية إلى أن الغرب منخفض عن مستوى بقية أرض القرية، وربما تكون هي الأخرى وليدة اللامنطق.
تلمست وجنتها ثانية، لا تزال تتوهج بحرارة اللطمة، فومض داخلها ميل للذهاب إلى اللسان تحديدًا، يقولون أنه منطقة ثقيلة.
سألت عن معنى الكلمة، ففسروا بأن: "من يدخل نطاقها يشعر بـ... بشيء مختلف، بثقل نفسي يجثم على صدره"، لذلك عرفت سارة أنه المكان المناسب؛ فهي في حاجة ماسة لنوع من عقاب الذات.
وصلت إليه في غضون خمس دقائق، فأبصرت مياهه الرقراقة الشفافة، حيث أمكنها رؤية الأسماك المختلفة، تتبارى في الانسياب مع حركة المياه.
اقتربت أكثر، وكأن صدرها يتعطش للثقل النفسي الذي يروون عنه، وبالفعل وجدته، فاتضح أن الكلام شيء، والتجربة شيء آخر.
حلَّت ضفائر التردد، ونزلت المياه بثيابها، فابتعدت الأسماك، بينما توغلت سارة أكثر. المياه لن تجاوز ركبتها بأي حال، فهذا هو أقصى عمق لها في أنحاء اللسان.
الثقل النفسي يزداد، لكن لا يوجد ما هو أكثر؛ لا أشباح، لا (سلعوة)، لا (أمنا الغولة)، لماذا الشائعات التي يطلقها الأهل إذن؟! أم أن الكبار عبيد للخوف، وأدمنوا سقايته لنا؟!
هبطت الفكرة الأخيرة على خاطرها بشكل أكثر سطحية طبعًا. اعتبرت سارة الماء بمثابة سريرها، فاستأمنته على نفسها، وأرخت جسدها سابحة على

ظهرها، تريد أن تدفن حزنها في مقبرة من ماء، وطمأنها أن المنطقة هادئة، لا تتعلق بها نظرات متطفلة من أحد، ولا أصوات تعتدي على أذنيها بالإزعاج، حتى الخلفية التقليدية للحقول من صرير الحشرات ونقيق الضفادع، اختفت تمامًا من أفق أسماعها.

اختفاء تلك الأصوات نعمة، وإن عجز عقل سارة الصغير عن إدراك الجانب الآخر من الموضوع؛ جانب النقمة؛ فمن يدحر الكائنات المرعبة هو -حتمًا- كائن أكثر رعبًا، قابل لأن يطرق مسامع سارة بعزيف آخر.

كانت هذه اللحظة قد استرخت على ظهرها فوق سطح المياه، تلتصق ثيابها بجسدها الصغير، ثم سمعت تلك الأصوات لأول مرة.

"مت... متت... مت... متت"

اتسعت عينا سارة، من هذا الذي يتكلم عن الموت؟!

اعتدلت الفتاة مذعورة، إن الأصوات تأتي من أسفلها من كل أرض اللسان تحتها. نظرت إلى موضع قدميها، ضربت الماء البارد بقدم مرتجفة، فأثارت الغبار تحت الماء إثر حركتها.

ارتأت سارة أن هذا يكفي كتعذيب للذات، ولاذت بالفرار.

****

صوت ثانٍ:

أم صلاصل

نهرتهم فاطمة كي يكفوا عن المشاغبة، وإلا ستأتي شياطين الزوبعة، وتختطفهم.

اختلط الجزء الأخير من صيحتها بالحشرجة، مما جعل الحروف تختلط، وتفقد معالمها.

لا يعزى أكثر انفعالها إلى الأبناء أنفسهم، بل تنفيسًا عن شأن آخر؛ حيث سيعود زوجها متأخرًا اليوم، ويتظاهر بأنه لا يزال غاضبًا إثر مشادتهما المعتادة الأخيرة.

هي تخرج في مناسبات اجتماعية كثيرة، ما بين عزاء في قرية مجاورة، زفاف في النجع الغربي، زيارة مريض في مستشفى المركز (السبعين)، إلخ، تعللت أنها -في كل الأحوال- لن تظل سجينة المنزل طوال النهار.

"جيد أنكِ قلتِها يا هانم. أنتِ تتمسكين بالمناسبات -إذن- لتدوري في الشوارع طوال النهار"

تعتبر فاطمة المشادات روتينًا عاديًا في حياتها، نوع من الاختلاف الذي لا يفسد للود قضية، حتى الكدمة التي خلَّفتها لكمته؛ فلم تعد تؤلمها كثيرًا.

بعد العشاء، زجرت الأولاد ليناموا، بينما مكثت هي ترتقب عودة بعلها. لقد أعدت له العشاء، وقررت أن تنتظر مجيئه، وبالطبع ما إن تشعر به سيفتح الباب، ستهرع إلى السرير، وتتظاهر بأنها نائمة.

اتجهت إلى باحة البيت. مزية المنازل الريفية أنها مساحة واسعة تشغل الغرف المسقوفة جزءاَ يسيراَ منها، أما البقية فعبارة عن فناء متصل بالسماء، وهو ما سمح لها بأن تسبح بعينيها في القبة المرصعة بالنجوم، ثم تناهى إلى سمعها، صوت ما، يجيء من حائط المنزل الذي يفصلهم عن الشارع. تقدمت خطوات حذرة تستطلع مصدر الصوت.

هناك قماش يتطاير ويتحرك ببطء أعلى الجدار، المشكلة أن ما يخرج منها هو صلصلة معدن خافت، وليس حفيف ثياب، ثم.. كيف تتدحرج قطعة قماش بهذا التوازن، فوق حائط بعرض سنتيمترات، فلا تسقط يمنة أو يسرة؟!

بعد مزيد من التدقيق، اتضح أنها ليست خرقة قماش تمامًا، بل ثوبًا، ثوبًا كاملًا مطرزًا بالخرز.

تزايدت الصلصلة، بينما ترك الثوب نفسه لمداعبات الرياح، فاستسلم لها بدلال وانسيابية. في المقابل، تلاحقت أنفاس فاطمة وهي تهمس بصوت مبحوح:

- هل أنتِ...؟! أأنتِ...؟!

استعادت المرأة تلك الخرافة المنسية من دفتر ذكريات القرية، عن ثوب مخيف جلب الوبال على القرية. الصلصلة مخيفة لن تصمت أبدًا، ثم جاءت الإجابة أوضح لفاطمة في نهنهة بكاء تخرج من الثوب، قبل أن يستطيل الثوب وينهض ليمتزج بالصلصلة الشهيرة.

- "نعم، أنا أم صلاصل" (●).

● (أم شلاشل) أو (أم صلاصل): شيطانة تتزين بالكردانات والخلاخيل، لتمشي ليلًا برفقة جلجلتها مميزة، فلا يراها إلا الغرباء وتعساء الحظ. يعود موطن الخرافة الأصلي إلى قرية (الشروانة) بأقصى شمال أسوان، على الحدود مع محافظة (الأقصر).

تراجعت فاطمة إلى الوراء، فتعثرت لتسقط أرضًا.

****

استيقظت فاطمة لتجد نفسها في سريرها، وبجوارها استلقى زوجها فضل، محدقًا في السقف بثبات:

ـ هل استيقظت؟!

"سؤال سخيف، ما دمتَ ترى عينيَ مفتوحتين فعلًا؛ فلست ماعز(•)!"

كادت فاطمة أن تلقي هذا الاعتراض، لولا انشغالها بما هو أفدح:

ـ (أم شلاشل)! هل رأيتها؟! أين ذهبَت؟!

اعتدل فضل كمن لدغه عقرب:

ـ اهدئي! ماذا تقولين؟؟! (أم شلاشل)؟!

ـ نعم، لقد رأيت ثوبها الدامي، وسمعت الصلصلة المعدنية بأذنيّ اللتين سيأكلهما الدود.

ـ دعينا الآن من كلماتك العاطفية المتعلقة بالدود وخلافه، أخبريني: هل أنتِ متأكدة؟ لقد وجدتك مغشيًا عليكِ، ذهب عقلي أنكِ رأيت دبيبة أفزعتك، أو أنكِ غاضبة مني، فتركتِ النوم على سريرنا، وفضلتِ الفناء.

ـ أهذا هو وقت المزاح الآن؟! قلت لك إنها العفريتة (أم صلاصل)، أنا متأكدة كما أراك أمامي الآن، ثم إنك السبب، أنت من تركتني وحدي في المنزل، أنت الملوم يا... يا ابن الـ..!"

جزت أسنان فضل بأزيز مكتوم، سيضطر أن يتصامّ عما سمعه، بسبب حالتها النفسية؛ سيتجاوز لها إهانات لم يكن ليتجاوز عنها في ظروف أخرى.

• من المعروف علميًا بالفعل أن الماعز ينام بعين مفتوحة.

طلب منها أن تحكي ما رأته بهدوء، فانطلقت فاطمة -دونما إبطاء- تروي تفاصيل ما حدث.
اتكأ فضل على جدار السكون حتى اختتمت فاطمة قصتها.
أسند ذقنه بأنامله متدبرًا، وأخيرًا أصدر رأيه السديد:
ـ ألم يخطر ببالك أنها تهيؤات؟! تخبرينني بإبصارك ثوبًا يتحرك فوق حائطنا، واختصرتِ كل الاحتمالات في أنها (أم شلاشل)، ونسيتِ تفسيرات أخرى أبسط مثل أن يكون مجرد خرقة قماشية فعلًا!؟ أهاً، ها أنا ذا أرى عينيكِ تبرقان بغضب، بالله عليك يا بطة، أنا في مزاج جيد، ولا أرغب في بدء مشادة جديدة.
اندفع سؤال متنمر من شفتي فاطمة:
ـ أنا من أرغب في أن أعرف؛ متى تتوقف عن تسفيه رأيي؟ أخبرني عن شيء واحد وافقتني فيه!
حك فضل ذقنه، وانصهر في محاولة التذكر:
ـ نعم، أنسيتِ أن اسمينا يبدأان بنفس الحرف؟!
ـ ...
ـ أترين اتفاقًا أكثر أهمية من ذلك؟! عمومًا، أرى أن نكمل نقاشنا باكرًا؛ كي نقطع الطريق على الشجار الذي سيُولد. انعسي وارتاحي الآن، أريدك أن تخلدي إلى نوم بلا كوابيس أو أمهات شلاشل، وها أنا ذا بجوارك، لن أفارقك هذه المرة.

****

مضى اليوم التالي، بنجاح الزوج في إنساء فاطمة الموضوع، مما اعتبره انتصارًا أكيدًا، يبرهن على قدرته في الإقناع.

ذات عصاري وقف في وسط المنزل، يتأمل المساحة التي زرعها في فنائه، كان الثوم قد بدأ ينبت بالفعل، مشهد يمس شغاف القلب فعلًا؛ البذور ناضلت في معركتها المعتادة، حتى شقت التربة إلى السطح.

صاح فضل بطفلته:

ـ تاج، ضعي فم الخرطوم في الصنبور، وهاتي طرفه الآخر إلى هنا.

استمر سرحانه في اللون الأخضر، ثم لاحظ أن الوقت مر، والفتاة لم تأتِ بمطلبه.

التفت فضل بوجه مشتعل، يعيبه دائمًا فقدانه السيطرة على غضبه، فيحوله من شخص مرح ودود، إلى كائن تجري العدوانية في دمائه.

أبصر ابنته أمام الجدار المنزل الشرقي، بينما جسدها ساكن تمامًا.

ـ ألم أقل ضعي الخرطوم يا فتاة؟!

نظرت إليه البنت بنظرة خاوية مبهوتة، وإن لم تتحرر من جمودها أكثر من ذلك؛ على الناحية الأخرى، أدركت شقيقتها أن هناك بركان قادم، سيصب على رأس تاج، فهرولت تنفذ مطلب أبيها عساها تنزع فتيل ما هو قادم.

عندما عادت بالطرف الآخر من الخرطوم، وجدت أنها تأخرت؛ فقد تحرك الوالد نحو أختها كالعاصفة.

ـ ألم تسمعيني أناديك يا بنت الـ..؟!

يحتل مكان النقط اسم حيوان أليف، فردت الصبية بنفس النظرات الذاهلة:

ـ ما هذا يا أبي؟!

كظم الأب ثورته قليلًا، بما مكّنه من أن يترك البنت ويلتفت، و... ما هذا بحق؟!

خيوط طويلة من سائل أسود محمرّ، تنحدر على الجدار بطوله، وكأنما أمطارًا من دم هبطت على ذاك الحائط دون غيره، أو... أو أن شخصًا ينزف كان يزحف فوقه.

استرجع الأب ومضات خاطفة؛ لقد وجد زوجته مغشيًا عليها هنا، في نفس موضع أقدامه الآن، أي أنها كانت تقصد هذا الجدار؛ وكما يُحكى دائمًا، هذه الدماء ذات الرائحة الكريهة هي البصمة، أو بمرادف آخر، هي العلامة التي تتركها زيارة (أم صلاصل)، وهذا يعني مباشرةً، أن فاطمة كانت... محقة!

جذب الأب ابنته من يده بعيدًا؛ لقد اتخذ قراره الفوري، بالحفاظ على السلام النفسي لعائلته:

ـ يا تاج، انسِ كل ما رأيتِه الآن، إنها مجرد اتساخات ناتجة عن حيوان ما في الأغلب، أكرر عليك يا ابنتي المطيعة، حذار أن تُحدثي ذكرًا عن هذا الأمر، خصوصًا لأمك، أعني أن هذه مسألة غير مهمة، وذكر المسائل غير المهمة يضر دائمًا، أثق أنك ستسمعين كلامي؛ فأنتِ أعز أبنائي، كما أنني أسميتك (تاج) على اسم أحد أهم الأشياء في الدنيا.

صفقت الفتاة بحبور، وقد بدأت طمأنة الأب تؤتي ثمارها، سألته إن كان يقصد بالطبع ما يقال أن الملوك يرتدونه على رؤوسهم.

صحَّح فضل:

ـ كلا، بل ما هو أهم بكثير؛ تقنية الـ Tag الخاصة بالفيس بوك، والآن ناوليني خرقة مبللة بالماء، فنزيل هذه الدماء قبل عودة أمك.

****

اسمها في شهادة الميلاد (أميمة).

لها وجه في استدارة القمر.. نظرات عينيها كطلسم ساحر.. وهكذا، لا يصعب التخمين أن أميمة كانت قرة عين أبويها، وصاحبة امتياز التدليل الشديد بين بقية أشقائها، تسير فترقص الأساور الذهبية في معصميها بصوت مسموع، ليلتحم في إيقاع واحد مع تأرجح الكردان الذي يزيِّن صدرها.

غدت الفتاة أميمة حلم كل الصبية، والطيف الذي يداعب خيالهم، بعضهم باغت أبيه فعليًا، بقوله: "اخطب لي أميمة، عندما أكبر لن أرضى بأنثى سوى أميمة".

حتى جاء الموعد القاسي، وانتفخت بطن أميمة، فالتفتت إليها علامات الاستفهام، والاتهام.

صحبوها إلى الطبيب سريعًا، حتى يجهضوا جنين الشك في أعماقهم، ولم يتنفسوا الصعداء سوى عندما طمأنتهم:

ـ كلا، ليس حملًا.. على الإطلاق.

وقبل أن يزفروا الاطمئنان الذي تنفسوه من صدورهم، سمعوا استدراكة الطبيب المباغتة:

ـ الموضوع أخطر بكثير، وللأسف نحتاج إلى إجراء عملية بأسرع وقت ممكن.

هوى قلب الأم إلى سابع أرض، فضربت صدرها بكفها مذعورة:

ـ "عمـ..؟؟ عـ... ـمـ.. ليـ.....ـة؟!"

احتاجت الوالدة لدقائق، حتى تلملم شيئًا من ثباتها، مما مكنها من أن تنطق جملة مفيدة أخيرًا:

ـ أرجوك يا دكتور، افعل أي شيء. نحن تحت أمركم في أي مقابل. المهم، أن تنقذوا بنيتي.

ابتلع الطبيب ريقه، ثم انتقى كلماته بعناية:

ـ للأسف، فتاتك مصابة بعيب خلقي شحيح الحدوث، حيث وُلدت بغشاء بكارة يعاني.. انسدادًا كاملًا، مما يمنع دماء الطمث عن مخرجها الطبيعي، فتتجمع في البطن بالاحتقان الذي ترونه. الحل الوحيد المتاح، هو إجراء عملية في أسرع وقت، وعمل فتحة جراحية بالغشاء، و..

مادت الأرض بالأم إثر الزلزال الذي سمعته.

ـ عمل ماذا يا دكتوور؟!

ـ افهميني يا سيدتي، لن تؤثر العملية على عذريتها كما تتصورين، كما ستعطيكم المستشفى شهادة رسمية توضح تاريخها المرضي، والداعي لإجراء الجراحـ.....

تشبثت الأم بالمعطف الأبيض للطبيب:

ـ أستحلفك بالله يا دكتور، أما من حل سوى ذلك؟!

تمنى الطبيب لو يمتلك إجابة غير التي نطقها:

ـ للأسف لا يا حاجة.

انقلبت ملامح الأم إلى طرف النقيض، فاستبدلت الهلع بقناع من الجمود، ثم أعطت ظهرها للطبيب، وهي تخاطبه بكلمات ثلجية:

ـ إذن نشكرك يا دكتور، سأصحب ابنتي معي.

رفضت الأم كل التوسلات، كل التحذيرات، واعتبرت موت الصبية، أفضل من فقد الختم الرباني لعفتها، أي رجل حينئذٍ سيقبل الزواج بها؟!! وكيف نقنعه بقصة مرضها، المضاعفات، العملية؟؟! ستبدو قصة مُختلقة سخيفة، لن يصدقها أحد ولو عضدتها كل شهادات الدنيا.

قبضت الأم على كف ابنتها، وسحبتها ورائها.

ـ على مهل يا أمي؛ فأنا أتألم.

التفتت الأم إلى ابنتها، وركزت النظر بدموع صامتة على البطن المتكورة للفتاة، تأملت عباءتها الجميلة الموشاة بالخرز؛ فمن أجل قماشها ذهبت الأم خصيصًا إلى المركز، وانتقته بيديها بعد جولة طويلة مع ابنتها، نقبا فيها بين محتويات ألف محل.

تحت العباءة الآن، بطن تهدد بالانفجار.

عادت أميمة إلى المنزل، قضت فترات بصحة جيدة، وفترات أخرى شهرية حملت لها آلام ممضية، ثم ذات مساء، تدهورت حالتها إلى أبعد مدى؛ قضت ليلة طويلة من العذاب، وبجوارها تبكي الأم بدموع العين، ولوعة

القلب. الغريب، أن الأخيرة لم تشعر إطلاقًا بعذاب ضمير، بل الحزن فقط؛ حيث دثرها يقين أنها سارت في الطريق الطبيعي الوحيد المتاح، وبالتالي، استقبلت النتائج على أنها (قضاء وقدر).

في النهاية، تلوث حجر العباءة ببقعة كبيرة بلون أسود محمر، تفوح منه رائحة الدم الفاسد، فاختتم مصير أميمة بالذهاب إلى القبر، بينما مصير الثوب إلى الرمي في النيل.(•)

ألقته الوالدة للأمواج، بعد أن غسلته لمرة أخيرة.. بدموعها، ثم راقبته يسافر غربًا على صفحته إلى أفق آخر، وأملت أن يلتقي بروح أميمة هناك، فيلتقيا في سلام سويًا.

وهو ما لم يحدث، كما تبين لنا سابقًا.

****

اسمها في شهادة الميلاد (أميمة).

واسمها في شهادة الوفاة أيضًا (أميمة)، أما فيما بعد الموت، فقد حازت لقبًا مضحكًا بعض الشيء، هو (أم شلاشل).

****

الصيف المخادع يتسلل إلى أسوان باكرًا كعادته، مما جعل (عمرو) يرفع سرعة المروحة، ثم خرج إلى الزير، يتجرع كوبًا كبيرًا من الماء.

نادته أمه:

• تتمة (أم صلاصل): بدأت القصة بزوج وجد في الحقل ثوبًا نسائيًا غارقًا في الدم، فأخذه وغسله، وأهداه لامرأته.

كان هذا خطأً فادحًا؛ لأن الزوجة وجدت الثوب يختفي أحيانًا لتظهر مكانه هرة صغيرة؛ قرر الزوج التخلص من الثوب في البئر، وكانت تلك غلطة أكثر فداحة؛ لأن (أم شلاشل) لم تترك القرية منذ ذلك الحين.

ـ توجد زجاجات مياه أبرد في الثلاجة!
ـ تعلمين يا أمي أنني لا أفضلها.
حال السأم والحر بين عمرو وبين استمراره في المذاكرة، فألقى كتاب (تاريخ الفكر الاجتماعي) وراء ظهره، واتجه إلى حاسبه، يلتمس بعض الترويح، وما هي إلا دقائق، حتى بلغ نفس الباب المسدود: ملل، ملل، ملل.
المنفذ الوحيد المتبقي هو التلفاز. لاذ عمرو به في الصالة، فألقى جسده على الأريكة أمامه، ثم جرى إبهامه فوق الأزرار المنمنمة لجهاز التحكم، وضغط رقم قناته المفضلة الموجودة على (١٠١): (ناشيونال جيوجرافي)، ففوجئ بها تطل عليه ببرنامج عن (نيرون).
جبر البرنامج بخاطر عمرو نوعًا؛ بحكم حبه للتاريخ، فمنحه بعض المفاجآت الطريفة، منها على سبيل المثال، أن نيرون عشق الغناء، ليس الاستماع إليه فقط، بل مارسه أيضًا فوق مسارح روما القديمة. الكارثة الأقسى، أنه اعتاد الاندماج في حفلاته لساعات، مما منح الجمهور عقابًا أسوأ من حرقه لروما؛ حيث يُجبرون على متابعة الاستماع حتى النهاية! (•)
أفاق عمرو على صرير الباب، مما زحزح تركيزه قليلًا عن المطرب (نيرون).. هذا والده.
أوصد الشيخ صالح المصراعين وراءه، ثم سار إلى الداخل بينما يخلع العباءة عن كتفيه لمح فتاه على الأريكة، التقت العين في العين، فاعتدل عمرو احترامًا، و... وتأهب لأن يستقبل منه نفس العتاب المعتاد:
ـ "يا ولدي، دائمًا أراك إما أمام التلفاز أو أمام الكمبيوتر، هلا ذاكرت لك كلمتين؟!"

• حقيقة تاريخية.

وضع الأب عباءته على الأريكة المقابلة، وجلس جوارها يلتقط أنفاسه، بينما يداعب ما حول فمه علامة الشرود، تعجب عمرو، لم يقلها حتى الآن؟

ـ ولدى، أخبر أمك أن تأتي لي بكوبٍ من الشاي.

نهض عمرو، ثم توقف غريزيًا للحظات.

ـ هل من خطب يا عمرو؟ هل تريد أن تقول شيئًا؟

ارتبك الفتى، فـوقوع اللوم أفضل من انتظاره بالتأكيد، و..

ـ هه؟! لا، أبدًا، سأبلغها حالًا، و...

بتر جملته؛ فقد قدمت الأم من تلقاء نفسها على صوت حديثهما.

ـ أهلا يا شيخ صالح، حمدًا لله على سلامتك، سآتيك بالشاي في دقائق، لكن أخبرني أولًا، إلام توصلت مع (الغنايم) وأولاد (الحصري)؟

أسلم صالح نفسه لسطوة التنهيد، بينما تجري أصابعه على حبات المسبحة:

ـ حمدًا لله يا حاجة، وفقنا المولى.

بهت عمرو، كيف نسي أن اليوم هو موعد جلسة صلح مولانا للعائلتين حقنًا للدماء؟! لكن النتيجة كانت محسومة على أي حال، فمن ذا الذي يرد وساطة (الشريف) و(القُطب) و(شيخ الطريقة)؟!

توقفت أصابع الحاج صالح عن الجري فوق المسبحة، ثم رفع ناظريه عنها يستوقف زوجته قبل أن تذهب:

ـ انتظري ثانية يا أم عمرو، تذكري -لاحقًا- أن تمري على جيراننا، وتطمئني على سارة، فحالها يؤرقني.

ـ سارة بنت عم أمين؟! ماذا بها؟!

انتبه عمرو متأخرًا إلى ذعره الواضح، فوبّخ نفسه سرًا، ثم كافح لإعادة طرح السؤال في صيغة أكثر اتزانًا:

ـ أقصد أن هذا أمر سيئ، لقد رأيتها الأسبوع الفائت، وكانت على خير ما يُرام، فماذا ألمّ بها؟

قرر صالح أن يلتزم حسن النية، ويتجاوز علامات الاستفهام عن هلع عمرو المبالغ فيه، ثم... تذكر فجأة:

-أخبرني أولًا يا عمرو، فقد انتبهت الآن فقط أنني عندما خرجت، شاهدتك أمام الكمبيوتر، وعندما عدت وجدتك أمام التلفاز، إنني أشفق على مستقبلك يا بني، فمتى أراك تذاكر كلمتين؟!

دنا عمرو من الوصول لحافة الجنون، أهذا وقته؟! أسرع يجيب بمبدئه الفصيح الجاهز، مع إشارة بسبابته إلى التلفاز:

ـ هذه قناة (ناشيونال جيوجرافي) يا أبتِ، وأنا أدرس في آداب-قسم (اجتماع)، أي أن متابعتي لها تعد مذاكرة كذلك. أتمنى أن نعود -أرجوك- لموضوعنا، عما أصاب سارة؛ فقد أقلقني حديثك"

عكست مرآة وجه الأب، ابتسامة خفيفة، وأكد له لو أن مستواه الدراسي يوازي طول لسانه، لضمن استمراره بين الأوائل.

كرر مولانا حك جانبي شاربه منعطفًا على شأن سارة؛ نقل ما قاله أهلها عن انزوائها منذ الأمس فقط، تحديدًا منذ عودتها المغيب الماضي من عند عمتها، ذبل حالها فجأة ما بين اكتئاب شديد، امتناع على الأكل، خرس عن الكلام. قالوا أن كل شيء يشي بأنها صحيحة البدن، على الناحية الأخرى، يؤكد الأهل هنا وعند عمتها أن أحدًا لم يضايقها، أحيانًا تدمدم شاردة باسم عمها المسافر خاطر، الذي لعله أوحشها، ثم يبدأ كلامها باتخاذ منحنى مبهم عن (الغبار) و(الرنين) بالإضافة إلى مناجاتها مرارًا لمن تدعوها بـ(هي)، دونما توضيح من تقصد، رجّح أمين أنها ممسوسة والعياذ بالله، فناداه حالًا قبل دخوله، ورجاه أن يعزّم عليها.

فور ولوجهما غرفتها، أبصراها تلوذ بمصحف صغير بين كفيها، رفضت بعصبية أن يقترب منها، ورفعت المصحف في يدها، وقالت أنها تستعين بالله دون

وساطة. انفعل أبوها إزاء الرد الذي أجابت به، فأجابه أبو عمرو أن: (لا بأس).
في الخارج، وضح له أنها بخير من ناحية الـ(بسم الله الرحمن الرحيم)؛ فلو أن عليها جان مؤذ، لما تمكنت من قراءة القرآن.
ـ أوصيكِ يا أم عمرو أن تطمئني عليها، واسعِ للتأكد كذلك، من ضايقها؟ أو بالأحرى تلك الـ(هي) التي ضايقتها؟ وأنا سأتدبر أمرها أيًا كانت من هي، الفتاة مثل ابنتي.
ضربت الأم صدرها علامة المفاجأة، ثم أممت على مشورة زوجها:
ـ أكل ذلك يجري لكِ يا بنيتي؟؟! سأسوي لك الشاي يا حاج، وأسرع إلى زيارتها، والاطمئنان عليها. أنت أيضًا يا عمرو، يجب أن تذهب كذلك؛ فهي ذات مكانة غالية عندنا، عندنا جميعًا"
تساءل عمرو بينه وبين ذاته، لماذا ضغطت أمه على حروف إضافتها الأخيرة؟ انشغل بهذا السؤال حفنة من الوقت، ثم نحاه جانبًا ليخلو إلى ما هو أهم: ماذا جرى لسارة؟ وما ذلك الـ (الغبار) و(الرنين)، والـ (هي) الذي تتحدث عنهم؟ جاهد في الربط بين تلك المفردات الغريبة السابقة، دون جدوى.
غدا عمرو مثل كوكب خرج عن مداره، مثل درويش يطلب المدد والقدرة على السباحة في سمائها، وللعجب، هذا هو النوع الوحيد من السباحة، التي يتمنى انتهاءه به إلى الغرق.
و... تصلب عمرو عند التشبيهات التي سرح فيها عقله، (درويش)، (مدد)، (الغرق)، ألم يذكر منذ ساعة، نأيه التام عن الصوفية؟ فمال بال تشبيهاتها ولغتها، متغلغلة فيه إلى هذا الحد؟!
حك عمرو شاربه النابت متفكرًا، و...، حتى هذه... هي الحركة المميزة لأبيه عندما يحار.

استلم عمرو لحقيقة، أنه يحمل تركة (مولانا) شاء أم أبى، فركز في تلجيم لهفته قدر المستطاع، وهو يدخل بيت جاره أمين، يسأل والدتها عن حالها.
بحمد الله، نجت جملة أو جملتان من لعثمته الجمة، ففهمت أم سارة أنه يطمئن على ابنتها.
انكمشت الأم على حزنها، وهي تجيب:
ـ فيك الخير دائما يا ولدي. للأسف سارة حالها يفطر القلب. إنها حبيسة غرفتها، تفرض على نفسها إقامة جبرية، لا تزال كما هي ترفض الكلام والطعام، واضطررنا في النهاية إلى دس الأكل في فمها دسًا، سأدفع نصف عمري، مقابل أن أعرف من تلك الـ(هي)، التي تدمدم بذكرها على الدوام.
تردد صدى كلمات الأم في حجرة عقل عمرو؛ هناك (هي) و(رنين) و(غبار).
أين الحقيقة بين كل هذا التخبط يا سارة؟؟

****

جلست سارة القرفصاء أمام باب منزلهم، تقلب وجهها في الأفق شرقًا وغربًا.
في الغرب، وجدت الحقول قد سطت على الأفق بطوله، فتمايل نخيلها استجابة لمغازلة نسيم العصاري؛ بينما في الشرق، احتكر الجبل الأفق الآخر، في حين تناثر الصبية منفردين باللهو فوقه، مع طائراتهم الورقية. وبين أولئك وهؤلاء، زاغت نظرات سارة، اليوم فقط استطاعت كسر الحاجز، والخروج من معتقلها الاختياري.
دارت رحى عقلها، تستعيد أحداث المساء قبل الماضي، أقل ما توصف به أنها مهرجان للفزع، ما رأته خلاله فاق كل ما تعرضت له من هول في عمرها مجتمعًا، تصورت سارة أن ما سبق يحدث في روايات الجيب فقط، و...
وفي تلك اللحظة انفلقت الأرض عن حمادة، الشقيق الأصغر لسارة، التي انتفضت من المباغتة، خصوصًا أنها في حالة نفسية سيئة من الأساس.

تَفُلت في صدرها تعبيراً عن الفجأة:

ـ أفزعتني يا حيوان!

هبطت الفتاة ببصرها لأسفل، فأبصرت بين يدي شقيقها بعض العصي الخشبية، وبكرة خيط، وكيس بلاستيكي كبير. بدا مطلبه واضحًا قبل أن ينطق به، كما سكب عليه طنًا من (المسكنة)، ككل مرة تكون له حاجة ما عندها، وتوقع -يقينًا- أن هذا كاف لإقناع سارة كالعادة.

"كلا"

صدمت سارة شقيقها بهذه العبارة القاطعة، وهو ما أسعدها تحديدًا أن تراه في وجهه، احتاجت ذلك في ظل حالتها النفسية الحالية.

على الجانب الآخر، يمتلك الأطفال العديد من أسلحة التوسل.. التباكي.. ركل الأرض بأقدامهم.

احتاجت سارة خمس دقائق أخرى من العناد، قبل أن تنهار مقاومتها في النهاية:

ـ أنتم الصبية تلهون هناك، بينما نحن حبيسات هنا، وعيب أن نصعد الجبل، ثم تريدني بعد ذلك أن أساعدك؟! طيب، هات ما بيدك، لا أعرف لم تسمونها طائرة ورقية، بينما هي من أكياس البلاستيك؟! والآن ناولني العصي، ثم أخبرني ما شكل الطائرة الذي ترغبه، مربع أم دائرة؟!

نطق الفتى كلمة واحدة، خُتمت بصك الحماس:

ـ دائرة.

خلال عشر دقائق، انتهت سارة من صنع الهيكل، وتبقى الميزان الخلفي، ارتبكت سارة نوعًا؛ إذ تخبطت أمام كيفية ضبطه تقريبًا، وإن تدخل كبريائها ليخفي ذلك.. وفجأة.. تدخل صوت تعرفه جيدًا:

ـ في رأيي، ميزان الطائرة مائل ناحية اليمين، يجب شده قليلًا إلى الجهة المعاكسة، أتسمحين؟

التفت سارة، فاستقبلها عمرو بعينين باسمتين، وكفه الممدودة تعرض المساعدة.
ناولته سارة الطائرة بأنامل مخدرة، فأنهى المتبقي منها بأصابع سريعة، وأخيراً سلمها إلى حمادة ممازحًا:
ـ هيا يا بطل.
طار حمادة ضاحكًا يسابق الريح نحو الجبل، فعاد عمرو ببصره إلى سارة، صمت برهة يستغيث بحصيلته اللغوية، ويبحث عما يمكنه قوله لها، صدقوا أو لا تصدقوا، ذلك الثرثار المسرحي يتلعثم عن إيجاد ما يقوله.
أخيراً خرجت منه مجاملته المرتبكة:
ـ بسم الله ما شاء الله، أراكِ أفضل حالًا.
أعطته سارة ردًا ذابلًا مقتضبًا:
ـ شاكرة لك.
تأرق عمرو وهو يرى سارة بهذا الشكل، سألها في سره: "أين أضعت ضحكتك؟"
استيقظت داخل عمرو طريقته التمثيلية، فقال يبسط لها جناح المرح:
ـ لن أسالكِ ماذا رأيتِ بالضبط يا سارة، أريدك أن تثقي بشيء واحد؛ أننا سُمِّينا (إنسان) من النسيان، انسي ما ضايقك أيًا كانت.
ـ من السهل أن تعيش دور الناصح؛ لأنك لم تر ما رأيته.
انقلبت شفقة عمرو إلى غضب مكتوم، فالفتاة رفعت صوتها لدرجة الصراخ، وهذا يندرج في بيئتهم الصعيدية تحت قائمة (كبائر الإهانات)، حتى لو كانت تلك الفتاة تتربع على عرش قلبك.
طار كل أثر للود من وجه عمرو، وبقيت فقط ملامح جامدة، تقول:
ـ ربما أنتِ محقة، سلام.
انتبهت سارة إلى خطئها، فاستوقفته بينما كان يدير ظهره:

ـ عمرو، انتظر، لم أقصد أن أبدو فظة.
تجمد عمرو قبل أن يكمل استدارته، بينما سمعها تكمل:
ـ ما مررت به جعلني خارج حالتي الطبيعية، فأرجو أن تنس عصبيتي، لا تغضب.
عاد ييمم وجهه صوبها ببط، وإن عجزت كرامته أن تبتلع ما حدث منذ دقيقة.
ـ لاحظ أنك كنت تتكلم عن النسيان منذ دقيقة.
تغلغل منطقها داخل تلافيف عقل عمرو، فأطفأ الشرر الذي يندلع داخله:
ـ لديكِ حق، أعتذر أنا أيضًا لو تدخلتُ أكثر من اللازم؛ كل ما هنالك أنكِ تهمينني، ومستعد أن أفعل شيء كي لا أراكِ بهذه الحالة، سارة، لاح في ذهني حالًا اقتراح علاجي ممتاز، ما رأيك لو...؟
أطل الاستفهام من نافذتي عيني سارة، خلال لحظة السكوت توقفها عمرو:
"... تقبلين الزواج بي؟"

****

صوت ثالث وأهم:

الحب

ما نطق به عمرو، هو أكثر من مجرد ٤ كلمات؛ بل كانت أقرب لرحلة زارت بـسارة فصول السنة الأربعة، هي برزخ سحبها بغتة إلى ما بين دنيتي الكتمان، والإعلان!

عمرو نفسه يعجز عن تصور، كيف تلفظ بها؟! كيف حقًا؟!

ندم الفتى على انزلاقه إلى هذا المأزق، ومقامرته بفضح المسكوت عنه، في البداية أراد لكلماته أن تحاط بغلاف سيلوفان من الدعابة، لكن رغمًا عنه، تسرب إليها شيء من الحرارة الصادقة، مما جعل أذناه تحمرا متسائلًا: "ترى ماذا سيكون ردها؟"

توجه نحو سارة بحواسه الخمسة، ورفع حدة أجهزة استشعاره، و...

في الثانية الأولى، أصاب الفتاة دوار تام، تلاه أن تحررت أطرافها نسبيًا، فوضعت يدها على قلبها، تسأله أن يتماسك، ثم ارتفعت يدها الأخرى ببطء، تتحسس وجنتيها، وتتذكر لطمة نالتها من والدها منذ اثني عشر عامًا من الزمن.

لاحظت أن ثواني طويلة مرت، في حين عجزت خلالها عن التفوه بحرف، فحفزت نفسها كي تقول أي شيء، وإلا سيفسر صمتها على أوجه كثيرة.

أخيراً، قالت:

ـ أقدر لك كرم أخلاقك يا ابن العم، هذا عرض سخي جدًا، بقدر ما أرفضه جدًا، أنصحك أن تنس أمر هذا الارتباط المستحيل يا عمرو، أنسيتَ أنني

بشر من طين، بينما أنت... (مولانا)؟!
ترددت اللفظة داخل زنزانة عقله.
(مولانا)؟؟!
سببت الإجابة شروخًا عميقة في جدار إحساس عمرو. إذًا فسارة تذكره بجرحها القديم، عندما رفضوا تصديقها لأنه ابن مولانا، وتلقت صفعة كعقاب، وهي المجني عليها؛ لأنه ابن مولانا، والأدهى، أنهم رفضوا اعترافه هو نفسه -كذلك- لنفس السبب.
انتابته رغبة عارمة أن ينسحب، لولا أنه تماسك، فلو مشى الآن سيشي ذلك بتضايقه، وسيُعتبر اعترافًا موثقًا بأنه قصد ما قاله، لقد كسا حواره بعباءة الدعابة، فألزم نفسه بأن يستمر كذلك.
ـ يا للخسارة! لقد فوتِّ على نفسك فرصة العمر؛ فأنا عريس لُقطة، عريس يضمن لك ألا تقترب منك الشياطين؛ ليس لأنني ابن مولانا، بل لأنني... منهم.
ابتسمت سارة للكناية، وإن لم تتحرر بعد من أثر عبارته المكهربِة عن (الزواج)؛ لقد كان جدًا لا مزاحًا، تكاد تقسم على ذلك، الحزن الذابل في عينيه، يكاد يقسم هو الآخر.
لكم تميل إليه بحق! ليست متأكدة إن كان (الحب) الذي يتحدثون عنه، الأغاني والأشعار والأفلام.
كل هؤلاء تعتبرهم مجرمين آثمين، اغتالوا كل معاني الحرفين المقدسين بكثرة تكرارها، الشيء الوحيد المتأكدة منه سارة، أنها ترتاح لوجود عمرو في عالمها، وفي نفس الوقت، يفصل بينهما حاجز مصطلح (مولانا). الأرض تدور حول شمسها على بعد مسافة محددة، لا تستطيع أن تقرب فتحترق، أو تبتعد فتتجمد؛ هذا تشبيه قرّب الصورة، وإن أثار الامتعاض في نفسها كثيراً؛ هي لم ولن تدور في فلك أحد.

سعت سارة أن تدفع بالحديث في وادٍ آخر، فسألت فجأة:
ـ عمرو، أريد أن أسألك حول موضوع.
بهت عمرو من التحول المباغت، ثم ارتاح للاتفاق غير المكتوب، أن يغيرا الموضوع. فرد كفيه جانبًا بطريقة تمثيلية، كطريقة يقول بها (أنتِ على الرحب والسعة)، مما شجعها أن تواصل:
ـ ماذا تعرف عن (أم شلاشل)؟
أجاب عمرو بنفس طريقته المسرحية:
ـ خرافة تراثية تتواترها البلدة، قصتها تقليدية ومفتعلة جدًا، كل منطقة -لو تلاحظين- ينطوي تراثها على حكاية (أنثى شيطانة)، أي أن مثلها مثل خرفات (السلعوة) و(الغولة) و(أم دويس) و(ليليلث)(•)، مع الفارق أن العفريتة بلدياتنا اسمها أكثر إضحاكًا، وأن بعض المعاتيه هنا يقسمون أنها موجودة، بل ورأوها بأعينهم.
قلبت سارة شفتها السفلى، واكتفت بالتعقيب الضائق على آخر جملة له:
ـ لا أعلم أكثر الأسماء التي ذكرتها؛ ما أعرفه جيدًا، هو أنني إحدى المعاتيه الذين تحدثت عنهم.
تلاشى القناع التمثيلي عن عمرو، واستعاد جديته لفوره، خصوصًا عندما سمعها تكمل:
ـ لقد رأيت (أم صلاصل) مساء أمس.
عض عمرو على شفته السفلي بحرج، وجب عليه أن يتأنى قبل التسرع بالإهانة؛ فمنذ البداية، كانت تتحدث كثيراً في هذيانها عن الـ(هي)، وأنها

• أسماء لأساطير شائعة عن حوّاءات مخيفات؛ السلعوة والغولة تم شرحهما سابقًا في الرواية، أما (أم دويس) فتنتمي إلى التراث الإماراتي، في حين وردت (ليليث) في العهد القديم للتوراة، وقيل أنها الأنثى الأولى التي تمردت على آدم، مما أدى إلى مسخها كشيطانة.

حقيقة وليست خرافة، والآن استفهمت عن (أم شلاشل). كانت المسألة واضحة وسهلة التخمين منذ سألتْ.

ـ عفوًا، لم أقصدكِ بالتحديد، وإنما -بحكم التخصص- تكلمت بصوت (علم الاجتماع) الذي أدرسه. في كل الأحوال، أتقلب على نار الفضول، لأعرف ما الذي رأيتِه.

ـ هل ستصدقني حقًا يا عمرو؟

صمتت لحظة، قبل أن تعترف بأن هذا -تحديدًا- سبب خرسها؛ إذ فقدت الأمل في وجود من يؤمن بها، لتنحصر اختياراتها -حاليًا- بين سجن من اثنين:

- الصمت: فيظنونها ممسوسة أو مريضة.. يدورون بها على المشايخ.. يُثقلون رقبتها بتعليق عشرات الأحجبة.. علاوة على خنق عينيها بدخان البخور ٤٨ ساعة في الـ٢٤ ساعة.. والأسوأ، التفاف النسوة الزائرات حولها، بنظراتهن المتصعِّبة، ومصمصة شفاههن.

- سجن الكلام: فيرميها أمثال (عمرو) بالمبالغة والتهويل.

عفوًا، لقد اختارت الأول.

ـ أريت؟! أعرفت لماذا أنا صامتة كل هذا؟! لأن سارة (المكتئبة) الصامتة، أهون ألف مرة من سارة التي ارتكبت إثم (البوح).

تموج بحر عمرو بهذه الهمسات الصخرية التي سقطت فيه، فتدبر كل حرف أراد أن يرد به:

ـ سارة، البعض يخطئ ويظن أن الصمت موهبة، بينما أعتقد من ناحيتي أن استمراره أكثر من اللازم أفدح ثمنًا. أخبريني بما تريدين، وستجدين صدرًا رحبًا أكثر لأبعد الحدود؛ فكما قلتُ لكِ أنني شيطان متنكر في ثوب (مولانا) صغير، فكيف أجد في نفسي طاقة أن أتهم أحدًا؟! ها أنا أُعيركِ سمعي وحواسي كلها يا سارة.. تفضلي.

رنت العبارة في أذن سارة، فمست جزءًا من كتلة إحساسها، من النادر أن يصل إليها أحد، مما جعل السد الداخلي ينكسر، فانطلقت تسرد ما لديها بأكبر إيجاز ممكن؛ فمن المسيء واللافت لو توقفا طويلًا أمام فم الباب.
ذكرت له أول مرة، سمعت فيها عن (أم شلاشل)، كانت منذ شهور قليلة فحسب، وينسب الفضل في المعلومة، إلى فاطمة زوجة ابن خالها.
زعمت فاطمة أنها رأت الشيطانة، وأن كل تفاصيل القصة حقيقية، بما فيها الصلصلة، الثوب الدامي، تقمص العفريتة لهيئة امرأة حزينة.
استهترت سارة بما سمعته، بأكثر مما كان سيفعل عمرو، حتى زوج فاطمة شاركها الرفض بتعصب مماثل.
بالأمس فقط غيّرت سارة رأيها، فقد ادَّخرت لها ألواح القدر، لقاءً مباشرًا حصريًا مع (أم صلاصل)، وربما كان ذلك جزاءً وفاقًا، لاستهزائها بكلام فاطمة.
لم تصدق عينيها، بينما تسمع الصلصلة، وترى الدماء المسودة تنحدر من الثوب، لتسقي الأرض، ارتفع الثوب في الهواء أكثر وأكثر، فنهض وكأن جسدًا خفيًا يسكنه.
أكملت سارة:
ـ للأسف يا عمرو، خلا مرمى بصري من أي شخص يمكنني الاستغاثة به، مُتُّ رعبًا ألف مرة، بينما رنين خلاخلها يحاصرني، ويخدرني بسيل مزيف من نداءات المسكنة و البكاء.
فجأة توقف الثوب، وصدرت عنه صرخة ملتاعة ثقبت أذني، مما جعلني ظننتها خدعة أخرى، فإذا بالرداء ينكمش على نفسه، ثم يتراجع بحركة حثيثة، وهو يودعني:
ـ لا لا لا! إنك تحملين رائحته، دمك من دمه، ابتعدي عني! فلستُ ندًا له، بالأصل لم أرد إيذاءك مطلقًا، ما أنا سوى امرأة قتلها الحزن، تبحث عمن تشاطره إياه!

ـ صدِّق أو لا تصدِّق يا عمرو، لقد خافتني (أم صلاصل)، بأكثر مما خفت منها.

برقت عينا عمرو بلمعة تعجب؛ فما سمعه مجملًا ضد المنطق، ضد قناعاته.

ـ أظننا اتفقنا على ألا نهوِّن.

رفع عمرو كفيه يعلن الاستسلام، والاعتراف بخطئه:

ـ لم أكن أهوِّن، وإنما كنت أسخر فحسب، هههههه، لا مشكلة، سنعدل اتفاقنا، فلن أهون أو أهول أو أسخر، هيه يا سارة، لا تكوني ضيقة الصدر هكذا، واكملي.

ـ كنت أتساءل هل ستضحك أيضًا لو عرفت الأعجب؛ أن عمي خاطر، هو من جاء وأنقذني ليلتها

هكذا أجابت سارة بإيماءة مقتضبة، ملامحها بالكامل تنطق بالصدق، لا يمكن لعمرو أن يخطئ قراءة سارة، وإن حار فيما تقصد، أراد إطلاق باستفهام متهكم حتى، فعجزت بديهته عن إسعافه. انتظر عمرو دقيقة حتى تتحرر قدرته على الكلام:

ـ (أم شلاشل) ثم.... ماذا؟! عمك خاطر؟! مهلًا، هل هو في البلدة أصلًا؟ لم نعد نراه كثيراً منذ رحل إلى أسيوط، ثم...

صمت عمرو إشفاقًا، فرحلة خاطر بدأت بأسيوط ومحطتها التالية كانت المعتقل.

ترددت سارة كثيرًا قبل أن تمنحه تصحيحًا بسيطًا:

ـ آخر أخبار راسلنا بها عمي، كانت أنه ترك عمله في أسيوط واتجه إلى سوهاج، لذلك أخمن أنني لم أره هو بالضبط، بل أأ.. طيفًا له لو جاز لي التعبير. بينما تحاصرني (أم شلاشل)، لاحت الزوبعة من بعيد، و...

(عمها)؟؟! (سوهاج)؟؟! (الزوبعة)؟؟!

قرعت اللفظة ناقوسًا خفيًا داخل عمرو، أسرع يستوقفها، وهو ينتفض من التوتر:

- انتظري، ببطء لو سمحتِ يا سارة. هلا أعدتِ عليّ الجزء الأخير؛ فقد بدأت قصتكِ تنحى إلى منحنى مسلٍ كثيرًا.

على العكس، اكتسب حديث سارة تلاحقًا أسرع؛ فكم من فترة مرت عليها، تشتاق فيها لفرصة أن تتحدث: ركز معي يا عمرو، كنت أخبرك أن الزوبعة ظهرت فجأة، دار غبارها في رقصته الحلزونية المعروفة، وحينها، هربت (أم شلاشل) لفورها، بعد أن قالت ما قالت. نظرتُ إلى الزوبعة دونما خوف، كان منظرها عاديًا جدًا، فتعجبت من السُمعة التي ظهرت حولها، دققت النظر أكثر، وهنا -فقط- لاحظت شيئًا مريبًا؛ فداخلها ترائى لي ظل رجل، ميزته لفوري، كان ظلًا شبحيًا لعمي، تخيل وكأنك ترى تمثالًا لأحد أقربائك، تمثالًا من تراب عاصف، يتكثف، ويتجسد، ويتحول رويدًا رويدًا إلى كيان يتحرك مثله مثلنا. أنا متأكدة أنه عمي، هناك ألف تفصيلة تجعلك تميز أقاربك من بعيد؛ مقاييس حجمهم، طريقتهم في ربط العمامة، مشيهم، قوفهم.

كنت مسحورة بالمنظر أكثر مني متهيبة، يا للروعة! كان كل غبار الزوبعة الحلزوني إما خارجًا منه، أو يندمج فيه.

ثق في كلامي يا عمرو، إن الزوبعة وعمي، كيان واحد!

****

استمرت الأجراس تقرع في محراب عقل عمرو؛ الزوبعة وعمها واحد؟ عمها في سوهاج؟ الصامتون -كذلك- لهم أياد وبصمات في سوهاج ممثَّلة في معبدهم! إذًا -لو صح كلام سارة- فإن عمها خاطر أحد الصامتين.

اقشعر جسد عمرو، وعجز عن هضم هذه النتيجة؛ فعندما قرأ عن تلك الفئة استشعرها شيء مبهم، قادم من عالم بعيد خارج مألوف، وبالتالي كيف

يبتلع فكرة أن جاره صار منهم؟! جاره الذي طالما حمله على حجره صغيراً، وأمسك يده يعبر الطريق، ورافقهم إلى كل موالد (الشاذلي أبو الحسن)[•]، الذي طالما رآه يلقي السلام على كل من يلقاه، يشاركهم الأفراح والأطراح، يتحدث ويصخب، كان (منّا) بمعنى الكلمة، فكيف يستقيم أن يصير فجأة ضمن (آخرين)؟! خصوصًا، عندما يكون هؤلاء الآخرون، فئة من زمن الفراعين، تمتهن حرفة (الصمت)!

انتفض عمرو ينفي الفكرة لفوره؛ هناك احتمال أبسط ما يكون، قد يظهر الصامتون للناس في صورة أشخاص محببين لهم، ارتج عقل الشاب ما بين سؤال جديد ملح:

س: لماذا رأت فيهم عمها خاطر بالتحديد؟ لماذا ليس أبيها؟ أو أخيها؟ أو حتى -بكل تواضع- أنا؟

طرأ لعمرو رد منمق فوري:

ج: ربما لأنها تفتقد عمها الغائب، وتألمت لفترة ضياعه السابق في غياهب المعتقلات.

س: ماذا عن الـ...

• الإمام الشاذلي أبو الحسن: هو (علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي)، أحد أعلام الصوفية، ولد أواخر القرن السادس الهجري (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م) في إقليم غمارة بالقرب من مدينة (سبتة) بالمغرب، ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي، بينما اكتسب لقب (الشاذلي) من قرية (شاذلة) التي بدأ فيها بالوعظ والتعليم.

توفي الإمام الشاذلي أثناء طريقه إلى الحج مع مريديه، ودُفن في وادي حميثرة بالبحر الأحمر، حسبما أوصى تلاميذه، وأصبح من يومها ضريحه مزارًا وملجأ للمتصوفة والباحثين عن الهدوء والتأمل.

ويقام له مولد سنوي قبيل عيد الأضحى المبارك، يمثل قبلة ومزارًا للمريدين والأهالي، وهو المولد الذى يتحدث عنه عمرو.

توقف عمرو عن الاسترسال؛ الأسئلة تُنجِب من رحمها أسئلة أخرى، وما من إجابة تبل الريق.
تحركت في الشاب شهوة المغامرة، لقد راودته رغبة جامحة سابقة، يخال أن هذا وقت تنفيذها. الإصرار يتغلل في رئتيه ليخرج مع أنفاسه الحارة، مما استدرجه لأن يصدر فرمانًا متهورًا لا رجعة فيه، فهمس لسارة بالحل، حل الخروج من المتاهة كلها:
- وما رأيك يا سارة، لو سألنا الزوبعة نفسها؟ وتأكدنا؟

****

اجتهدت سارة في محاولة إيقاف عمرو، ومنعه عن الانحدار إلى الفعل المتهور الذي انتواه.
- عمرو، قلت لك أنني رأيت عمي في الزوبعة، وبالتالي هي تمثل لي الاطمئنان والأمان، أما أن تذهب إلى اللسان، فهذا أمر مختلف تمامًا؛ تذكَّر الهالة الهول المحيطة بسمعته، استحضر الإشاعات التي نسمعها عنه في كل سامر في البلدة، ومنها العيون المنزوعة التي تسبح في مياهه، بالإضافة إلى النداء الذي يخرج من أعماقه ينادي باسم (الموت).
تجاذبت الرياح الشقية طرحة سارة من على رأسها، فردتها إلى موضعها مرة أخرى شاردة:
- هذه الأخيرة بالذات أثق أنها ليست شائعة؛ فقد اختبرت هذه الحقيقة بنفسي، حين كنت هناك.
استوقفت الإضافة الأخيرة عمرو؛ المفترض أن منطقة الحقول ينزلها الرجال فقط، إنه عالم لا وجود للنساء به، وتدريجيًا، تحول ذهاب إحداهن إليه إلى أمر ضد العُرف.
سألها مستنكرًا:

ـ كنتِ هناك؟! في اللسان؟!
قفزت إلى ثغر سارة نصف ابتسامة:
ـ كان ذلك في صغري، حين مررت بأسود يوم حينها، بل -في الواقع- هو الأكثر سوادًا في عمري كله، فقررت أن أذهب إلى هناك من قبيل إطفاء الألم، بأن أسكب عليه المزيد من الألم.
عبث الفضول بعمرو، فاستفهم منها أي يوم ذلك.
أغمضت سارة عينيها بقوة، تطرد الصور القديمة التي تمر أمامها، بينما نطق لسانها:
ـ لا داعي، لا أريد الحديث عن ذلك.
فتحت سارة عينيها، وأمعنت في الهروب من الذكرى، باستدراكها السريع: فهذا يُخرجنا من موضوعنا، عمرو، اسمعني، كما رويت لك، أنا مرهقة نفسيًا بما فيه الكفاية، فأرجوك لا تحملني المزيد منه، واعدل عن رأيك. أرجوك، لا تذهب
عمرو، يتدبر:
ـ يؤسفني أنكِ لا تقدري بكفاءة العبد لله، صدقيني، سأكون بخير بإذن المولي، ثم أن مغامري (ناشيونال جيوجرافي) يخوضون ما هو أعقد، ومع ذلك ينجحوا، و-بطبيعة الحال- لستُ أقل منهم في شيء. أما عن نصيحتك، فأثمنها جدًا بالطبع، تعلمين اقتناعي بديمقراطية الأنظمة العربية، بمعنى أن تستمع برحابة صدر إلى كل النصائح والآراء، في النهاية تنفذ ما ترتئيه أنت منذ البداية.
أشرق وجه عمرو:
ـ هدئي بالك يا سارتي، سأكون بخير.

****

خارج إدراك الحواس:

كهنة صامتون

"الصمت ليس صمتًا كاملًا بالأساس؛ فصرير أي شيء يخدشه"

أدهم الصفتي

ارتدى عمرو جلبابه الأبيض، وخرج.
كلما وسوس التردد في صدره، همس لنفسه بكلمة (السلطان الحائر) الشهيرة(•):
ـ "صمتًا؛ فالآن سوف أختار، أنا الآن أختار"
طرد الاحتمالات المُحبِطة التي تتوالى من ذهنه، وسعى أن يُركِّز في الاحتمالين الوحيدين الباقيين؛ إما أن ينجح، وإما أن ينجح. عبثت يمين عمرو بكم جلبابه الأيسر، وتذكر شعاره الأثير:
"كنت أخبئ بعضًا منه، في كم جلبابي الأبيض"
هكذا يجيبهم عندما يسألونه: "من أين تأتي بتفاؤلك (الساذج)، بينما يدثّر اليأس كل شيء تقريبًا؟!"
مر عمرو بمنطقة الحقول، وعبر حثيثًا فوق جذع النخلة المقطوع، الذي اصطنعوه جسرًا للترعة، عبر فوقها بينما يستعيد آخر عبارة ودَّعته بها سارة:
"اعتني بنفسك جيدًا، من أجلي على الأقل"
وبينما ارتسم الهيام على وجهه، ذعرت سارة فيما يبدو من فلتة لسانها، فعاجلته بتزييف مشاعرها وراء ستار مرحها الشاحب:
ـ أعني أنني أحتاج للراحة كما تعلم، وسيزعجني وجود عزاء في بيتكم، ونساء يصرخن باسمك نائحات لثلاثة أيام.
ـ إذًا، دعواتك لي.
ـ أتمنى من الله؛ أن يعطيك على قدر ما في نيتك.
ـ طلبتُ منكِ أن تدعي لي، لا عليّ.

• الاقتباس ورد بنفس المعنى تقريبًا، ضمن مسرحية (السلطان الحائر)، للأديب الكبير (توفيق الحكيم).

أكمل عمرو طريقه بخطوات ثابتة، وملأ رئتيه بالهواء المشبع برائحة الطين، مما خلّف في جسده قشعريرة باردة.
لسان، زوبعة، صامتون، عم خاطر، عيون منتزعة، دقات تناديك أن (مت)......(متت).
كل هذا ينتظر هناك على مرمى البصر، وعمرو من النوع الذي يحب أن يصل في مواعيده. رسم عقله الشكل المحتمل لمسرح الأحداث.
كيف شكّل لقاءه بكل ما سبق؟؟! لكن ماذا لو.... لم يظهر له أي منهم على الإطلاق؟! ستكون تلك إهانة قاسية بحق، كيف يجرؤون؟!
نفض عمرو هذا الخاطر عن عقله؛ فبحسبة بسيطة، غرائبيات اللسان تنقسم لنوعين:
ـ مؤكدة: مثل الدقات التي سمعها الجميع، ومنهم سارة، والعيون المنتزعة التي أكدها (طلعت) و(ضاهر).
ـ غير مؤكدة: مثل نظرياته حول الصامتين، والزوبعة، عم خاطر.
إذن النتيجة الكلية، أن رحلته إلى اللسان لن تُهدَر سدى، فإذا لم يجد أي من عناصر الفئة الثانية، فهو واثق أن الأولى ستكون في انتظاره.
خائف؟!
بالطبع نعم؛ فهو بشر في النهاية، المشكلة أنه أوصد عقله أمام أي تردد، سيذهب، لا بديل عن بلوغ اللسان، وأجارنا الله من الصعيدي عندما يوصد عقله.
هناك هدف واحد لا يحيد بصره عنه؛ يتمثل في العودة بإجابة أي من تلك الأسئلة التي تراكمت، كما أن هناك سببًا آخر خفيًا، يرفض عمرو أن يصارح به نفسه.
السبب نستطيع اختصاره في ثمان كلمات هي: أنسيتَ أنني بشر من طين، بينما أنت (مولانا)؟!

بالتأكيد عبارة سارة هذه أحد أهم الدوافع، إن لم تكن هي على الأهم، احتاج عمرو إلى ارتكاب أي عمل طائش، عله يضيع أثر رفضها الضمني له.
يا لتأنيب الضمير الذي يحاصر قلبه!!
يظل هناك دائمًا نوع من الآثام لا تسامح نفسك عليها أبدًا؛ كأن تصل إلى ساحة المعركة متأخرًا، أو.... أن تُضيع حبك الأول.
عشر دقائق أخرى، وبدأ اللسان يلوح في الأفق، يبتسم له، توقف عمرو برهة، ثم نفض عن ذراعي جلبابه غبارًا وهميًا، من المهدر للكرامة التراجع بعد الوصول إلى هنا، وهكذا، قدّم ساقه اليمنى يتابع المسير.
في البداية، داعبته النسمات الرطبة القادمة من مياه اللسان، اقترب أكثر، يدوس بخفيه على النجيل.
تلألأ وجه النيل الصبوح تحت ضياء الشمس الغائبة، فمشى عمرو حتى صار على مرمى حجر، ثم كرر لنفسه بتدبر:
- (مرمى حجر)؟
حك عمرو منطقة سوالفه كعادته كلما يفكر، فقد أوحى له التشبيه أن يقوم بتجربة. مسح المياه بعينيه أولًا، ثم انحنى على الأرض يلتقط حجرًا، طوحه بأقصى قوة يمتلكها ساعده، شق الحجر الهواء لثوان حتى سقط في المياه، أثار الارتطام نافورة صغيرة لثانية، ثم.... هدوء تام.
مجرد حركة من عمرو لا تعني شيئًا، ولا يعتد بها في جس نبض، مما جعله يكمل طريقه و....
مت.......متتت.........مت..........متت
تجمد عمرو في مكانه، أخفض رأسه يتطلع بثبات إلى موضع قدميه، كي يرهف أذنيه أكثر، إنها الدقات التي قالوا عنها.

****

"شششششش، وأصغ للأصوات الخافتة من حولك؛ فقد تهديك إلى الأجزاء المنبوذة من الحكاية"

هكذا همس عمرو ناصحًا نفسه، وفي العموم، تركت الدقات فيه أحد انطباعين؛ الأول: إنها كطبول حرب، أو أقرب إلى.... نبضات، وإن كانت بمعدل أبطأ كثيراً.

تحرك بصلابة يقطع المسافة المتبقية، حتى بلغ حافة اللسان، ثم أنه انحنى على الماء، يجلس على ركبة ونصف، ودقق البصر مستفيدًا من المنظور الموازي الذي يتطلع منه.

الدقات تتضح كأكثر ما يكون الآن، وإن انتقل عمرو إلى ترى أين أنتِ أيتها العيون الهائمة؟

"أن يكون نظرك ٦/٦ هذا ليس كافيًا، كي ترى جيدًا تحتاج إلى خيال ٦/٦"

نصيحة داخلية أخرى، قرر الفتى بسببها أن يثق بخياله، فنادى عاليًا:

ـ السلاااام عليكم.

ترصد الفتى المكان حوله، فوجد الصدى فقط يجيب نداءه. سحب نفسًا عميقًا من الهواء البارد، ثم أكمل:

ـ اسمي عمرو صالح، ومتأكد أنكم تسمعونني الآن.

واصل السكوت استبداده.

ـ جئتكم، وكل غرضي أن أعرف أكثر.

نفس الصمت القاسي.

ـ عم خاطر، أفترض أنك أيضًا موجود، وأنك منهم، مؤكد أنت تعلم هويتي، أنا عمرو ابن جارك السابق الحاج صالح، تعرفني منذ كنت طفلًا.

انتهت كلمات عمرو، وأفلست معها كل محاولاته، فهتف بعصبية هذه المرة:

ـ أيها الصامتون، هلا تكلمتم ولو مرة في حياتكم!!

نفذ صبر عمرو، فانفجر كثائر يقود مظاهرة تقتصر على شخص واحد، هو فقط:

ـ ما فائدة أن تروا وتسمعوا أكثر من غيركم، ثم تدفنوا ما عرفتموه في مقبرة السكوت، أو على أقصى تقدير، تتعطفوا وتلقوا للناس فتات تلميحات عن الحقيقة؟! مرت عليكم القرون، وأنتم كما أنتم مختبئون! أتعلمون ما الأسوأ؟ أنكم اصطنعتم قاموسًا خاصًا بكم، قلبتم فيه معاني المفردات؛ فسميتم الخرس عن الحق (حيادًا)، اعتبرتم الهروب (قدرة خارقة).

فرغ عمرو من ارتجالته القصيرة، ثم تراجع خطوتين كي يقف ثانية، ويرصد المنطقة من زاوية أوسع، يا للإحباط! توقع تصفيقًا على الأقل أو حتى...

انقبضت كل عضلة ووتر في جسد عمرو؛ فقد طرأ فجأة ما هو أبدع من التصفيق!

وجد بساط التراب حول اللسان بدأ يضطرب، يتطاير، يرتفع، ثم حلَّق حوله حتى حجب عنه الرؤية.

اعتصر عمرو كل قدراته كي يظل صامدًا، ويحافظ على ارتدائه عباءة الثقة، فتح وأغلق قبضتيه في إيقاع متتابع، يقال أن تلك الحركة تساعد في تبديد توترك، في كل الأحوال سيفخر ما بقي حيًا بأنه من أخرج الصامتين عن صمتهم.

لاحظ أن ماء اللسان يضطرب ببطء أيضًا، وسرعان ما تطور الأمر إلى نفس الحذو الذي وصفه أحمد سابقًا، ثم لم يلبث أن تجاوز الماء حدوده هذه المرة، وارتفع إلى الأعلى مثل الغبار، وكأنما غار منه. ثوان، وتماديا بالتحوّل إلى كائنات مبهمة، تولد وتتفتت إلى رذاذ في ثوان.

عجز عمرو عن قراءة تفسير مما يراه، فرفع عينيه عنها، ليجد الغبار يقدِّم بديلًا أكثر وضوحًا؛ وجد ما يشبه التلفاز ثلاثي الأبعاد، يجسِّد بشرًا قوامهم

بالكامل من التراب المتطاير. تحرّك الأفراد ببطء مهيب ليشخِّصوا أحداثًا ملموسة.

في المواجهة، قابل عمرو تمثُّلًا لامرأة فاتنة ميزها لفوره، سهر -طليقة غلاب- تقف فوق ما يشبه القبور مع أخرى، من الواضح أنها ستقرأ الفاتحة أو ما شابه، و... بل هما تنحنيان على تراب القبر، و... تحفران؟!

رجا الله أن يغيثه من المنظر؛ فقد وجدهما تنبشان القبر، وتلتهما لحم ساكنه.. محال! السؤال الآن: لماذا تجنح زوبعة الصامتين إلى هذا الكذب الواضح؟!

رنت عن يسار عمرو صلصلة مجلجلة، التنبؤ بمصدرها سهل إلى حد كبير، فهي ماركة صوتية مسجلة للعفريتة (أم شلاشل). أدار عنقه بسرعة، وتأهب لأن تقع عيناه على المسخ المشوه، الذي وصفته سارة، ثم....

أدرك أن هناك خطأ أكيدًا، من المحال أن تكون هذه هي (أم شلاشل)، إنها القمر نزل من السماء في هيئة صبية ذات ضفائر، تتهادى في مشيتها على موسيقى الأساور الذهبية، التي تعانق معصميها.

تقدم الفتى بخطوات متهيبة، ومد كفه ليتأكد أنها حقيقية، فاخترقت أنامله كتلة الغبار المتسارع، واستشعر دغدغتها لأصابعه.

تجاوزته الحسناء تكمل طريقها، من المخيب للأمل أنها لا تراه، أو تؤثر فيها لمسته حتى. كافح عمرو كي يحوِّل بصره عن ملكة الجمال هذه؛ فقد شاهد شبحي رجلين على حافة اللسان يقومان بأنشطة غريبة، أحدهما متوسط القامة، وسيم، الثاني أطول قليلًا، تنطق لغة جسده بكم ليس بالقليل من الصلف.

تابعهما عمرو لدقائق، ثم يأس من إدراك ما يفعلانه، فتحول عنهما. هناك أكثر من فيلم يدور ببطء في نفس اللحظة، ومن العبث تضييع الوقت عند طلاسم أحدهما، من الواضح -كذلك- أن الصامتون يعاقبونه:

ـ أنت أردت أن تعرف أكثر؟!
ـ خذ!
عاد إلى الصبية الحسناء ثانيةً، فاتسعت عيناه وهو يرى بطنها تنتفخ تدريجياً كبالون كبير، ثم تسقط الجميلة أرضًا.
هم أن يندفع نحوها غريزيًا، يساعدها على النهوض، ثم تذكر-فجأة- أن ما يراه لا يعدو عن عرض مجسم، على الطرف الآخر وقف جسدان آخران، رجل وامرأة، الأنثى تدنو منه، العينان من تراب، كمثل جسمها، ومع ذلك شاهد فيهما عمرو إبحار سفن الرغبة. وبالفعل، مدت ذراعيها تسجن الرجل بينهما، ثم تمادت إلى ما هو أبعد، دفعها الرجل عنه بعنف مشمئز، فسقطت أرضًا، بينما يوليها ظهره مبتعدًا.
تحوّل وجه عمرو من الأسمر إلى الاحمرار الخفيف؛ لم يتوقع أن يشاهد ما هو تحت تصنيف (للكبار فقط)! هز عمرو رأسه مرارًا وتكرارًا، يرفض التصديق، طبقًا لملامح الاثنين، هما شخصان ليسا على قيد الحياة حالياً؛ إنهما الشقيقان (محسن) و(نهلة)، ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، عندما تبدّى أمام ابن مولانا مشهد أب يقذف ابنه في بئر، (غلاب) وطفله، رج عمرو الوادي بصيحته:
ـ كذب! هذا كله كذب!
العجيب أنه صرخ بكلمتين غير واثق تمامًا منهما؛ فالتفاصيل الأخيرة، تتوافق مع مشاهد رآها بعينيه وإن لم يفهمها، تتعلق بـ :
غرابة أطوار محسن في الفترة الأخيرة، كوب العصير الذي انزلق يوم الزفاف من يد نهلة على ثوب صباح، نظرة نهلة الخاوية وقتها، جثة محسن المذبوحة، والسكين في يده، موت نهلة الغامض بعدها.
أجاب عمرو نداء داخلي:

"إياكَ أن تلوم قريتك على أنها هادئة أكثر من اللازم، بلا أسرار أكثر من اللازم؛ فخلف أبواب بيوتها المغلقة، قد يوجد أكثر مما تتوقعه!"
دقق في الأجساد الترابية حوله، صار جميعها معروفًا لديه الآن: أم شلاشل، والدتها، الثوب الدامي، الأجنبي، الضابط، نهلة، محسن، سهر، غلاب.
الكل انخرط في تشخيص مسرحيته المأساوية الخاصة، مما مكّن عمرو من الحكم -مرتاح الضمير- أنها الدراما الأبشع مما رآه في حياته. في ظرف ثلث ساعة، انكشفت الحجب عن عمرو، وعرف كل القصص السابق ذكرها عما يختبئ وراء الحواس الخمس، فتصدعت كل المسلمات التي يوقن بها، مثل تصوره أن:
ـ ضابط مركزنا كان مخلصًا للقانون.
ـ (أم شلاشل) مسخ آثم.
ـ سهر وابنها، كانا بشرًا مثلنا.
ـ نهلة، أخت بريئة.
سعى عمرو أن يُكذِّب ما رآه، أن يعترض، يصرخ، لكن كيف يقدم على ذلك، والوقائع تحاصره في صورة ملموسة مجسدة!؟ انهار عمرو، وأحاط وجهه بكفيه فرارًا.
خرج نداء مفاجئ عميق يخاطبه :
أعرفتَ الآن، نذرًا مما يعرفه الصامتون؟
أبعد عمرو كفيه عن وجهه، وتلفتّ حوله. المسرح الكبير أصبح فارغًا! كل الأجساد اختفت بغتة، في لمح البصر!
تجاهل ذلك كله؛ فمصدر الصوت هو ما يهمه حاليًا. من خاطبه منذ ثانية كان هو بنبرته بلا شك، لن يخطئ أبدًا تمييز صوت جاره القديم.
واضح أن سارة لم تكن تُخرِّف؛ لقد صدقت في كل ما رمت إليه، الزوبعة وعمها شيء واحد.

رفع الشاب صوته عاليًا، بسؤال:
ـ عم (خاطر)؟!
انتبه الفتى إلى التراب يتكاثف فوق قلب اللسان، ويصيغ صورة لرجل جالس القرفصاء فوق الماء، يرفل في جلباب واسع، وعمامة كبيرة ملفوفة بطريقة لا يخطئها عمرو، إنه هو بلا شك، الغائب الحاضر (خاطر).
فغر عمرو فاه بذهول:
ـ هل أنت منهم بحق؟ أم أن حواسي تخدعني؟
ـ بل صدِّق حواسك هذه المرة، يا ابن الحاج صالح.
ـ لكن كيف؟! متي؟! لماذا؟! وما علاقة اللسان بطائفة الصامتين؟
هُيِّئَ لعمرو أن شبح ابتسامة طاف بشفتي الرجل، بينما يجيب:
ـ لازلتَ كما أنت يا ولدي؛ فضولي، ومدمن تفتيش في قبور الأسئلة. بالنسبة للكيفية، فإجابته تربض تحتي بالضبط؛ لقد تشربتُ مهارتي من الكيان ذو الأوراق، الذي يرقد في أسفلي، في أعماق اللسان، وأنصحك ألا تسألني -مندفعًا- عن ماهيته؛ فقد رأيتَ بنفسك ما حدث للضابط والأجنبي، عندما تجاهلا نصيحتي هذه؛ فمن الكائنات ما يعيش خارج مجال إدراكنا، في عالم له لغته، وناموسه، وقوانينه. إنهم يستطيعون وهب البشر قبسًا من قدراتهم، بشرط أن تجيد قراءتهم، وتتحمل المخاطرة، فإما تربح، أو تموت. بالنسبة لبقية أسئلة (متى) و(لماذا)، فهي خارج نطاق موضوعنا، وتتعلق بذكريات بائدة مرت بي، لن تهمك في شيء، و.....

****

أسيوط - منذ أربعة أعوام.

انعطف خاطر بعد الناصية، فوجد نفسه في مواجهة المسجد، حيث فوجئ بالشرطة تعبئ بعض الملتحين في (البوكس) مكيف الهواء. لم يميزوا إذا كانوا

أصحاب لحى، أم مجرد (دوجلاس)، المهم أن هناك شعر أسفل فمهم، هذا ما لمسه خاطر في الثانية الأولى، أما في التالية، ظن أن قالب طوب سقط من الأعلى ليرطم بكتفه الأيمن.
ثم تبين أنه كف أحد المخبرين:
ـ تعال معنا.
نظر خاطر إلى الثور الذي يخاطبه، فزاغ بصره ملتاعًا بين المسجد/الملتحين/البوكس.
دنا من أن يبلل سرواله، بينما يتوسل:
ـ ماذا؟! أقسم أنني لا أعرف أحدهم يا باشا! أقسم أنني لا أعرف، ولا صلة لي بشيء!
ـ ولم الفزع يا صديق؟! كل ما هنالك، أننا سنأخذك في رحلة سياحية، سنذهب بك لنزهة (وراء الشمس)، وبعدها نخلي سبيلك
ـ يا باشا أنا لا أصلي أصلًا، أقسم بالله أني لا أصلي.
تكررت نفس صرخة خاطر في البوكس، وراء قضبان الزنزانة، فوق الخوازيق.
ـ أقسم بالله أنني لا أصلي أصلًا، والله العظيم أنا لا أصلي.

****

المعتقَل: مصطلح يعني عالم سفلي يقدِّس أصنام الظلم، وله قوانينه الخاصة، نقصد له (اللاقوانينه).
هو تقلُّص حدود دنياك إلى مساحة تقدَّر بالأمتار، فيه تعرف أن كلمة (انتهاك) لها أكثر من طعم ولون، وللأسف تتجرعهم جميعًا مطأطأ الرأس.
في السجن، بدأ خاطر يصلي قليلًا، يلتمس جبر الكسور التي أصابت كيانه، ويرثي كل نبتة كرامة كانت مزروعة داخل قفصه الصدري، وذبلت الآن واحدة تلو الأخرى.

في البداية، شك لوهلة أن يكون (الباشا) صاحب يد في إلقائه هنا، ثم استبعد هذا السيناريو لفوره. أنسي أن اعتقاله كان نتيجة خطأ، نتج عن تواجده في المكان الخطأ؟! سأل نفسه: لماذا يتهرب من الإقرار بالحقيقة المرة؟!

لقد نجا من جناية الآثار التي ارتكبها مرارًا، ليوصم الآن بجناية لم يرتكبها؟!

بحث خاطر فيما حوله عما يسرِي عنه، فوجد الصراخ والـ(آه)، هما الصديق الوحيد المتاح، واشترك معه الجميع في نفس الحال، عدا سجينًا واحدًا شذ عن هذه القاعدة؛ زميل زنزانة جديد شاركهم ذات كأس الألم والتعذيب، وفي نفس الوقت هو الوحيد الذي استطاع مخاصمة الألم، ففشل التنكيل في إخراجه عن شروده لحظة، أو جعل شفتيه تنفرجان عن اعتراض واحد، أو حتى صرخة، سلكوا معه كل الطرق، فانتهت جميعها إلى نفس الجدار المسدود.

لأول وهلة، ظنه خاطر (أبكم)، مما جعله يستحقر تغفيل الأمنيين، كيف يتوقعون استنطاق شخص بهذه الإعاقة؟!

ثم تدارك خاطر تخمينه سريعًا، حقيقي أن الأبكم لا يتكلم، لكنه حتمًا يصرخ حين يذوق ما يذوقونه، أما هذا الرجل، فتحصن بقوة فوق طبيعية، إنه يشاطرهم التواجد بجسده فقط، بينما وعيه في عالم آخر يراه، ولا نراه. تساءل خاطر، أيمكن -إذن- أن يكون من (أولياء الله)؟ كيف وهو يقف مثلهم في مهب الذل؟! أين كراماته وبركاته الكافية لإنجائه؟!

ارتاب خاطر طويلًا بينما يدمدم لنفسه: من هو؟؟ الشيء الوحيد الذي عرفه جيدًا، أنه معجب بمعدنه، ظل يلاحقه بمراقبته طويلًا، لا يحول عينه من عليه. تمنى لو يلتمس منه قبس تلك الطاقة المجهولة، عساه يصير مثله ولو ليوم واحد.

ضم خاطر ركبتيه إلى صدره أكثر، وارتشف -بين الفينة والأخرى- المزيد من النظرات إلى الصامت، روى بها ظمأه إلى تلك الأمنية، رآه كالعادة يجلس القرفصاء في الطرف الآخر من الزنزانة، الكفان على الفخذين، الظهر مفرود كالوتد، العينان هائمتان في شوارع اللامكان.

فوجئ خاطر -بغتة- برياح تكدّر هواء السجن بالغبار، وتحاصر الأبكم.

تلفت الصعيدي حوله بذعر، من أين أتى؟! كيف تدخل الرياح إلى مكان مغلق تحت الأرض؟!

الأكثر إفزاعًا، أنها غادرت الأبكم، والزنزانة كلها، وحامت لاحقًا في اتجاهه في اللحظة التالية، تخيل لو تم قذف عينيك فجأة بكومة تراب! رفع ساعديه في رد فعل فطري سريع، يغطي بهما وجهه، ففوجئ بالزنزانة تتموج أمامه -لثانية- كصورة معكوسة على المياه، ثم اختفى التراب فجأة، كما ظهر فجأة.

هبطت على كتفه يد سجين مجاور:

ـ ماذا أصابك؟

ـ الرياح.. الرياح، ألم ترها؟!

ـ أي رياح في علبة الكبريت التي تلمنا هذه؟!

تدخّل ثالث:

ـ ارحمونا من هوسكم هذا!! فلتخرسوا، نريد أن ننام.

قلب خاطر بصره حوله، في أنحاء الزنزانة، ثم صوبه الأبكم الذي لم يحرك ساكنًا، كدأبه.

سار خاطر حافيًا على شوك تعجّبه المذعور، وسأل نفسه:

ـ أين العدم الذي ذهب إليه الرياح؟!

وجد ذهنه يرد تلقائيًا: إنه نفس العدم الذي جاء منه. هنيئًا لك يا خاطر! يبدو أن التعذيب يؤتي ثماره، وبدأت تجن!

****

سرق الإنهاك يقظة خاطر، فغادر به إلى نعاس قلق مضطرب، رأى فيما يرى النائم أنه أمام معبد عتيق، تعانقه الهضاب من كل جانب، امتلك المكان مغناطيسية عاتية، جذبت إليها خاطرجذبًا، تقدم نحوه ببطء، يلبي نداءه الخفي.

تجاوز البوابة الشاهقة، بينما يتصفح تفاصيل المكان من حوله، سار بين الأعمدة العملاقة، حيث لابد أن يغزوه شعور بالضآلة، أضيف إليه حنين عارم إلى الماضي، دائمًا ما يهرب منه، حيث استعاد أيام القرية، النيل، الليل، الجبل، المقابر، النقوش.. عمارة.

قتلت الذكريات خاطر بسكينها الذهبي، المرصع بأطياف أيام مضت ولا تريد أن تعود، فسالت دموعه رغمًا عنه. رفع كمه، يمسح السائل الدافئ المنحدر من عينيه، وسعى للتركيز في الأهم؛ أن يعرف مصدر هذا النداء بلا صوت، الذي يتسلل إلى كينونته، فتّش خلف الأعمدة العملاقة، بين التماثيل الشاهقة، في المحاريب.

بوغت خاطر فجأة، بهتاف رخيم ينبعث من وراء ظهره:

"ويحك! أنت أول بشري عادي يبلغ هذا المدى"

التفت الأسواني بحركة سريعة، ورآه! إنه الصامت جالس القرفصاء، يستند بظهره على أحد الأعمدة.

الكفان في نفس الموضع على الفخذين، الظهر مفرود كالوتد.

الفارق أن النظرات هذه المرة تخلتا عن تيههما، وصُوِّبتا مباشرة نحو خاطر.

صوته رزين ناضج، به بحّة محببة للأذن، كما ذيّله صدى عميق، وكأنما يخرج من كل مكان بالمعبد، وليس من فمه فحسب. أول مرة يتخيل خاطر أن شفتي زميل المعتقل ستنفرجان يومًا، وتصدران كلامًا، هذا حدث يستحق الاحتفاء من كل النواحي.

سرى خدر الرهبة داخل الدورة الدموية لخاطر، قبل أن ينجح في النطق أخيراً:

ـ أأنت تتكلم مثلنا؟!

أصرّ الصامت على الاسترسال في موضوعه، وكأنما لم يسمع استفهام خاطر:

ـ في البداية، اخترقتَ الحُجُب ورأيت رياحي الخفية، والآن، أجدك تصدر نشاطًا فوق معتاد أثناء نومك، حتى وصلت به للتخاطر مع عقلي، أنت تجبرني على الاعتراف، بأنك حالة خاصة أول مرة ألتقي بمثل لها في حياتي، فأنتظر منك أن تخبرني: كيف؟! كيف فعلتها؟!

جاء الرد بنفس البحة المحببة للأذن، وإن نَبِه خاطر إلى عدة ملاحظات لطيفة جديدة، اندفع يصرَح بها ملتاعًا:

ـ على رسلك، أولًا: أراك تخاطبني دون أن تفتح فمك، فكيف بالله عليك؟!، ثانيًا: أتزعم أن لي قدرة ما على التجلي وكشف البعيد؟ أتمنى منك أنت أن تخبرني كيف؟! فأنت أول شخص أسمع منه هذا العُجاب.

دار خاطر حول نفسه، يمسح المكان ببصره، وهو يغمغم:

ـ أم أن تفسير كل شيء، هو أنني -ما قلتَ أنت بلسانك- أنني نائم، وأحلم؟!

حافظ الغريب على شفتيه مغلقتين، بينما خرجت ردوده كالعادة من كل مكان، ومن اللامكان:

ـ تستطيع القول؛ أنك نائم، وغير نائم في الوقت نفسه.

امتعض خاطر من هذه الإجابة الهزلية، فأكمل الصامت وكأنما استشف أفكاره:

ـ هذه النقطة بالذات، حتى لو شرحتها لك، غالبًا، ستفشل في الفهم.

ـ ماذاااا؟! أأنا أفشل في الفهم؟!

ثم انتبه خاطر إلى نقطة تقوي حجته:

ـ كيف تقول ذلك، وقد اعترفتَ بنفسك أنني حالة خاصة؟! بالإضافة لكلامك الكثير عن أنني؛ أول من اخترق الحجب، وبلغ الـ.. على ما أذكر قلت أنني بلغت الـ(مدى).

ربّع خاطر ساعديه أمام صدره، وقد راقه توجيه هذه الضربة المفحمة!! يَخَال أيضًا، أن الصامت -بدوره- اقتنع؛ بدليل أنه أجابه بطريقة عملية.

يقسم خاطر أنهما لم يتحركا، بل أن أرضية المعبد هي من ارتكب ذاك المزاح، فمرقت بهما بين الأعمدة العملاقة، ثم البهو الشامخ عالي السقف، وأخيراً أفضت بهما إلى هيكل مهيب، يتوسطه مذبح مستطيل، وعلاوة على حزمة ضوئية مربعة تسقط من فتحة السقف، لتُقبِّل الجدار المقابل.

الجدار بدوره كان تحفة فنية، تعانقت فيه نقوش ما بين واضحة جدًا، ومطموسة جدًا. أشار الصامت إلى الحائط المقابل من الغرفة:

ـ هنا قصتنا، وفي الأسفل حقيقتنا.

نقل خاطر بصره بين محدثه وبين الجدار، وهمَّ أن يعقب مستهزئًا:

ـ هل تظنني أدعى (تحتمس) حتى أفهم هذه الهيروغليـ....

خرس لسان خاطر عن الإكمال؛ فاللغة كانت مفهومة أمامه فعلًا! هرولت عينا خاطر فوق الرموز، لبدرك لأول مرة أن هناك ما يسمى الـ(جيرو) أو (الصامتون).

التهم خاطر المسافة الفاصلة بينه وبين الجدار، ثم حاذر عندما قطع طريقه حفرة تقبع في منتصفها جذور متشابكة، وكأنها... شجرة تنبت إلى الأسفل.. أهذا ما قصد به أنه حقيقتهم؟

لدى خاطر عقدة من الحفر منذ ما حدث مع (عمران)، فقرر أن يوجه فضوله نحو النقوش، هذا أكثر أمانًا.

دار حول الحفرة، يقترب من الجدار، دنا يتلمس نقوشه بأنامل ترتجف رهبةً، يعترف أن حصيلته المعرفية ازدادت كثيراً بفضلها، وحصدت إضافات قيمة أخرى، عن: الميثاق، العيون المقتلعة، الزوبعة، القارب، موسم الانصهار، الحجب، الفرق بين (الهائمون) و(الشيوخ).

****

هل قلقت فجأة على ابنك المسافر، ثم علمت إصابته بمكروه فعلًا؟
هل انتابك النفور من شخص أو مكان تراه لأول مرة، وفيما بعد اتضح أنه يخبئ لك أذى ما؟
يمكنك حاليًا، تخمين مصدر هذه النداءات الخفية؛ إنهم الصامتون في الأغلب.
هل شاهدت قبلًا زوبعة تتطاير فيها ومضات ورؤي، إذن تستطيع أن تجزم بنسبة كبيرة أنها مسيرة للجيرو.
* (الهائمون):
هي الفئة الأدنى من الصامتون. يملكون ثلاثية (التخاطر)، (الاستبصار عن بعد)، و(تحريك الرياح)، أما عن صمتهم فهو دوري وليس دائم؛ حيث يمتنعون عن الكلام في (موسم الانصهار) فقط، و(موسم الانصهار) هو فترة معينة في العام، ترتحل فيها عقولهم -تخاطريًا- إلى مقرهم وقدس أقداسهم بسوهاج، المكان الذي يقفا فيه الآن.
هنا تتجدد العهود، وتلتقي الحقائق، ويُكتَب تاريخ كامل قادم من خلف ظهر إدراك البشر. أما بقية العام، يختلط الهائمون بالبشر، وينخرطون في حياة طبيعية تمامًا، كما يُسمح لهم بتحذيرنا من أي شر يستبصرونه، شريطة الالتزام بأول بند من عهد الصامتين، وهو (انتهاج التلميح، لا التصريح).

* الفئة الثانية (الشيوخ):
تتخطى قدرات الواحد منهم رهط كامل من الهائمون، ويحوزون إمكانية الـ....، للأسف، غير مسموح أو مستحب كشف هذه النقطة، فنوجز بأن الشيوخ هم من صعدوا السلم حتى قمته، وظفروا باختراق الحجب والفضاءات الموازية.
تُحجز هذه الدرجة الرفيعة لصفوة الصفوة، أي من هجر الكلام نهائيًا لبقية الدهر، وصمد حتى تخطى الاختبارات التسعة. كل شيخ، يتولى بالعناية والتعليم سبعة من الهائمين، فيكوِّنوا معًا ما يسمى الـ(قارب). انظر حولك جيدًا، في شارعك، عملك، مدينتك، راقب كل من تحسبهم (خُرسان)؛ فقد يكونون منهم، تأمل حالهم لحظات، وحتمًا أنت المستفيد، على الأقل ستتأكد أننا نحن المصابون بإعاقة الكلام.
دغدغت البلبلة كل سنتيمتر من جسد خاطر، سأل نفسه:
ـ ما الذي نعرفه عن العالم حقًا؟!
هذا يفوق أسرار كل المقابر التي فتحها، وحكايا ألف ليلة وليلة التي سمعها، وخيال شعراء الربابة الذين عرفهم!
أحدث مذهب الصامتين اضطرابًا في بحيرة مقدسة داخل خاطر، حيث اصطدم -من وجهة نظره- مع ما لا يجوز الاصطدام به، فترجم رفضه عبر قولته المترددة:
ـ لا حول ولا قوة الله إلا بالله! إذن، أنتم -والعياذ بالله- وثنيون.
ارتجت أركان المحراب إثر غضبة الصامت، فنبضت بها الجدران والأرض والنقوش:
ـ من قال هذا؟! بيننا رجال من مختلف الأديان السماوية، والمسلمون منا أكثر ايمانًا بدينك منك، ما مذهبنا إلا سلم للترقي الذهني، بما لا يتعارض مع

عقائدنا، ثم تعال وأخبرني، أأنت من يحوقل ويستعيذ الآن، وأنت الذي حلف صادقًا ألف مرة، منذ ورد الزنزانة، بأنه (لا يصلي)!؟

جاء الدور على خاطر ليتم إفحامه هو هذه المرة، طأطأ رأسه إلى الأرض بخجل، يؤنسه عرقه البارد، تدبر الأمر جيدًا لدقائق، ثم قطع حبل تردده، وألقى بقراره النهائي:

ـ إذن، أرغب أن أكون منكم؛ منذ رأيتك أول مرة وأنا أريد أن أصير مثلك.

ـ اعترفتُ لك؛ أن بك نواة استبصار فطرية، بدليل وجودك هنا الآن، أما عن دخولك فعليًا عصبة (الصمت)، فيتطلب ما يفوق الموهبة بكثير.

ـ وأنا على استعداد، أيًا كانت هذه المتطلبات.

ـ يوجد أحد طريقين: إما أن تنفق أعوامًا وعقودًا من التدريب، وإما أن تختصر الطريق بالوصول إلى بؤرة لـ (كا) تدعمك، فترشف الطاقة منها مباشرة.

وقبل أن يستفسر خاطر عن ماهية (البؤرة) و الـ (كاي) أو (الكا)، استفاض الصمت في الشرح من تلقاء نفسه؛ فوضَّح أن كل مكان له روح وشخصية مثل البشر، بعض هذه الأماكن مفتاح إلى مخلوقات خارج إدراكنا، إن استطعنا معرفة لغتها، والتغلغل في كينونتها، ستسمو بنا إلى مرتبة الهائمين في أيام.

ـ وكيف أجدها؟ أو أعرفها؟

ـ هذه البؤر نادرة الوجود، وما أقترحها عليك إلا لأنني.... أشتم رائحة أحدها في ثيابك. أراك حتمًا عشت لمدة بالقرب من واحدة. ابحث في محل ميلادك، أو منطقة عملك، أو بلد عشت فيه طويلًا... ستجدها.

استمرت رحا النقاش لدقائق، ليستغرق فيه خاطر بكل خلية منه. أخيراً تمكن من سرقة وقت مستقطع من (البؤر) و(الكا) والاندماج، فاستفسر عن نقطة خارج الإطار:

ـ هناك ما يحيرني لو سمحت، لماذا لا تنجو بنفسك من المعتقل؟! لماذا تتركهم يعذبونك، بينما تستطيع سحقهم؟!
ـ من ناحية، أولئك الشيطانيون ينتهكون جسدي فقط، أما عقلي، فيرتفع درجة، بقدر ما يزيدوا من تعذيبهم؛ على الناحية الأخرى، -بالبديهة -لو جهرت بقدراتي، فكيف أكون حينها.. من الصامتين؟!
ـ كلام منطقي. هناك نقطة أخرى لم تبصرّني بها -صوّب سبابته نحو الجدار- ماذا تقول هذه النقوش المطموسة؟
اقتصر رد الصامت على هزة رأس نافية، فعجز خاطر عن استشفاف مغزى ذلك:
ـ ماذا تقصد ولا مؤاخذة؟
ـ قصدت: لا أعرف.
ـ أتتكلم صدقًا؟! أتقول لي فراعنة، ورياضة ذهنية، وأن هذا محرابكم، وفي النهاية تخبرني أنك لا تعرف ما نقش على جدرانه!
رفع الصامت كفه التي تشع المهابة، ومر بها فوق الرموز المخفية، دون أن يمسها:
ـ لا يوجد أحد على ظهر الأرض يعرف، ولا حتى الصامتون الشيوخ.
ـ من يعرف إذًا؟
ـ حتى الآن، لا أحد، كل شيء له موعد وأوان، وهذا الموعد اقترب كثيراً، عندها سيستكمل كل الصامتين الناقص من قصتهم.
ـ أتمنى -حينها- أن تخبروني به لو أمكن.
تمطت شفتي الصامت بما يشبه الابتسامة، و...، يااااه! بل إنها ابتسامة بالفعل، اتسعت تدريجيا حتى كادت تحتل وجهه بأكمله.
ـ لماذا تبتسم؟

لفت الصامت نظره، مُحافظًا على نفس إشراقة الوجه: ألم تنتبه لآخر جملتين لك؟ لقد نطقتَهما بقلبك، وليس بلسانك.
بُهِت خاطر، هذا صحيح فعلًا، لقد فعل ذلك دونما قصد، أي بالغريزة.
ـ أتعرف ماذا يعني ذلك؟
ـ ؟؟؟
منحه الصامت ربتة كتف مشجعة:
ـ معناه أن طريقك معنا ممهد، وأن نواة الموهبة داخلك، أنقى مما تصورت.

****

أكمل خاطر لعمرو ما انقطع من أسطر القصة:
ـ ثم عدتُ إلى هنا منذ ثلاثة أعوام، فور الإفراج عني، لعلك تذكر تلك العودة.
أمم عمرو على قولته:
ـ بالطبع أذكر، كانت أول زيارة لك بعد غيبة طويلة مؤسفة.
ـ صحيح، حينها بحثت وتقصيت كثيراً، وأخيراً، علمت أن البؤرة المنشودة هنا، تحتي بالضبط. تظاهرت بأنني سافرت مرة ثانية، بينما في الحقيقة كنت رابضًا هنا، ركزت، وثابرت، و... صمتُّ، حتى نجحت في النهاية، وتوحدت مع قوة الكيان، لو فشلت كما حدث للضابط والأجنبي لوجدتم عيني على سطح المياه مثلهما، رجعت إلى سوهاج كإنسان جديد، هناك احتفوا بي أيما احتفاء، وتم إعلاني -بجدارة- (هائمًا)، في واحد من أميز (القوارب). مكثت هناك حتى يومنا هذا، بينما تجسدي الروحي هنا، كما تراني أمامك، في قريتي، بين أهلي وناسي، اعتبرت نفسي الحاسة السادسة لبلدتنا، ونلتُ الإذن كي أمنع كل الشر الذي رأيته. في النهاية، أخالك راجعت نفسك الآن في هذيانك الأول، وعرفتَ أننا لسنا مختبئين.. هاربين، لسنا من

يصطنع قاموسًا، يقلب فيه معاني المفردات، بل نحن الحاسة السادسة كما أخبرتك، نحن الضمير المستتر للعالم.

طوق الخواء أرجاء اللسان الواسع، وهو ما ضايق عمرو في المقابل؛ فحتى مع كل ما سمعه، وكل الأسرار الخفية التي اطّلع عليها، تظل مبادئهم مرفوضة بالنسبة له؛ مجرد استماعه إلى مبررات خاطر، جاء ثقيلًا على نفسه كـ.. ثقل حفلات نيرون على قلب أهل روما.

باغت ابن مولانا بتمزيق الخواء من حوله، وإعلان موقفه الصادم:

ـ أخجل من إخبارك أن..... أنني لازلت على رأيي؛ أنا أراكم مثل الـ..، أريد تشبيهًا مناسبًا حتى لا تسيء فهمي يا عماه، آه، أنتم كالصفر الذي يضيف قيمة هامة للرقم، عندما يكون إلى يمينه، لكنه فضَّل أن يقف على اليسار، فصار كمية مهملة. بالضبط، هذا هو التشبيه المناسب، والدليل هو ما أريتني إياه بنفسك. أريدك أن تلاحظ معي تسلسل الأحداث؛ ستجد أن غلاب شك في امرأته، وخرج يتتبعها من قبل ظهوركم له، أي أن كشفه لأمرها -بدونكم- كان وشيكًا، ومسألة وقت فحسب، ما حدث لاحقًا يؤكد فكرتي، حيث علم الرجل حقيقة ولده بمفرده، فاتخذ القرار المناسب القاسي، وألقاه في البئر بمفرده أيضًا، وهكذا نرى أن غلاب اكتشف قدره، وواجهه دون أن يحتاج إلى صمتكم أو كلامكم. ننتقل إلى محسن ونهلة رحمهما الله، لقد قمتم بدور الجلاد، ونلتم القصاص من الأخت بإهلاكها وراء أخيها، لكن ألم تسألوا أنفسكم: ماذا لو أن المرحوم محسن لم يكن يرغب في الانتقام؟! لعله سامحها وتمنى لها أن تعيش، إن لم يكن لأجلها كشقيقته، فلأجل الأم العجوز المريضة، الأم التي انطفأ نور عينيها، بسبب ذرفهما الدموع على فقيديها إلى اليوم. أو دعنا من الأم، ليكن من أجل (محسن) الرضيع!

صحح خاطر بهدوء مريب:

ـ أخطأت يا فتى؛ إننا لم نهلكها، بل هي من فعلت ذلك بنفسها، أنت تملك نذر من المعلومات عن نهجنا، فتعلم إننا مرآة تضع الآثم أمام إثمه، وتتركه لمصيره بعدها. كانت المسافة بعيدة على مدى حركة صُل محسن، فاختصرناها له بالزوبعة، وتركنا الاختيارات مفتوحة للكل؛ كان بإمكان نهلة أن تصمد وتنجو، لكنها انهارت، وعكست السحر على نفسها، نزفت حتى الموت، بشكل ما، فقدت نهلة الرغبة في الحياة، واحتمال ذنب محسن، فأرادت أن تنال الراحة الأبدية.

أصرّ عمرو:

ـ وليكن، هذا لا يغيِّر من حجتي شيئًا، ما أردت قوله؛ أن الاعتماد على خمس حواس قاصرة، أفضل من أن أضيف إليهم أخرى سادسة، تجلب لي معها الخرس. إن من يدرك الحقيقة الكاملة ويصمت عنها، لهو كما أخبرتك -دون مؤاخذة يا عماه- صفر على الشمال.

أنهى عمرو آخر حروفه، وتوقع أن قولته ستشعل غضبة جاره القديم، في الماضي كان سخط خاطر يكلف عمرو جذبة من أذنيه، أو شكواه لوالده الحاج صالح، فترى ماذا ستكون ردة فعله الآن كصامت؟؟!

قرر خاطر مفاجأة عمرو كليًا؛ فعلى العكس تمامًا استقبل كلامه بضحكة مجلجلة:

ـ أأنت واثق مما تقول؟! أمتأكد أن من يعرف الحقيقة كاملة ويكتمها، يغدو (صفرًا على الشمال)؟

تنمل جسد عمرو توترًا، حيث لم يسترح لردة الفعل هذه.

- بدأت حديثك وأنهيته يا عمرو باتهامنا معشر الصامتين. أعيتني الحيلة معك في أن أخرجك عن مكابرتك، وأجعلك تستوعب، فارتأيت أن أوصلك إلى الحقيقة بصورة عملية. ألم تسأل نفسك؛ لِمَ خرجتُ عن السرية، فكشفتُ أمامك الحجب، وعرضت أمامك كل أسرار القرية؟ السبب أن أجعلك مثلنا،

فتدرك أن الصمت علاج، وليس هروبًا. الآن يا عمرو أنت تملك الحقيقة الكاملة، فأتحداك أن تستطيع إعلانها. جرب أن تذهب إلى أي ناد في القرية، وتصرّح بأمر نهلة التي امتكلت عشقًا محرمًا تجاه أخيها، أو أن تفضح أمر الضابط أو الأجنبي، أو السلعوة طليقة غلاب، أو ابنه الذي ورث منها نفس الداء، فتخلص منه الأب في البئر؟ هيا يا عمرو، أجبني، هل تستطيع؟

لهث ابن مولانا باحثًا عن أي دفاع، أي رد.

وللأسف، عرقله لسانه الذي ألجم في حلقه، لقد انشغل حتى أذنيه بتفاصيل (معرفة الحقيقة)، فسها تمامًا عن مرحلة (ما بعد أن يعرفها).

كان هذا هو الدرس الخامس والأخير الذي حصده عمرو.

لقد هزمه جاره القديم بالضربة القاضية.

في المقابل، استمر خاطر يجيب عوضًا عنه:

ـ الاجابة -حتمًا- (لا)؛ لقد شهدتُ مولدك يا ابن الشيخ صالح، وكبرت أمام عينيّ، وأعرف جيدًا أن الإجابة (لا)، تربيتك ولسانك لن يطاوعاك في فضح المستور، وفي النهاية، ستجد نفسك تنحاز إلى منهجنا، وتلتزم السكوت. إن الصامتين هم أهل الصفوة يا فتاي، ولم يكونوا أبدًا صفرًا على الشمال، وإلا فنفس القياس ينطبق عليك الآن.

سعى عمرو لأن ينفي، أن يستنكر، أن يصرخ.

وللأسف، نفذت ذخيرته من كل وسائل الرفض السابقة.

لقد مات الكلام على شفتيه، فغرق في إسفكسيا التخبط، والصمت.

(تمت)

ياسين. أ. س

٣٠ أغسطس ٢٠١٣م

أعمال أخرى للمؤلف:

- الكون المعكوس.
- دائرة المجهول.
- الأمسية المظلمة.

ــ تتوفر روابط تحميل إلكتروني لجميع الأعمال السابقة، من خلال مدونة الكاتب:

http://yassensaid.blogspot.com

*** وسائل التواصل الأخرى:**

ــ فيس بوك:

https://www.facebook.com/JassenASaid

ــ البريد الإلكتروني:

yasaid@yahoo.com

► إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ٢٠١٦ ◄

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
ثورة محظورة النشر - ط٣	توثيقي	محمد عبد الغفار
أزمة ثقة - ط٢	رواية	رباب فؤاد
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	كتاب جماعي
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي
ورقة في دوسيه	ديوان شعر	محمود الجوهري
شعب مالوش كتالوج - ط٢	كتاب ساخر	أدمنز صفحة الضاكتور
انتفاضة العملاق الداخلي	كتاب تحفيزي	مصطفى محمود
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافة الشرقاوي
فانتوبيا	رحلة فانتازية	إسلام علي/إلهامي مجدي
حياة خفيفة على جناح فراشة	تلوين للكبار	آلاء زهير
شمس بين الضباب	توثيقي	محمود إمام
مرايا الروح	تأملات	عبير جمال الدين
بعض منا	مجموعة قصصية	عبير جمال الدين
ناريسا	رواية	ميرفت البلتاجي
اتفضل في الصالون	رواية	محمد محسن
وراء الحواس	شبه رواية	ياسين أحمد سعيد